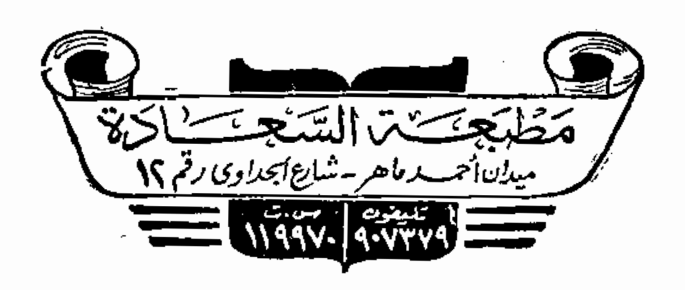
التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير سورة الكهف

دكتور
محمد سيد طنطاوي
مفتي جمهورية مصر العربية

الجزء الخامس عشر

الطبعة الثالثة
١٤٠٨ هـ — ١٩٨٧ م


مطبعة السعادة
ميدان أحمد ماهر - شارع الجداوى رقم ١٢
تليفون ٩٠٧٣٧٩
ص.ت ١١٩٩٧٠

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ، وعلى آله وأصحابه وأتباعه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين .

وبعد : فقد كان من فضل الله ـ عز وجل ـ على ، أن أعارتنى جامعة الأزهر إلى قسم الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة .

وقد امتدت هذه الإعارة لمدة أربع سنوات ، من سنة ١٤٠٠ إلى ١٤٠٤ هـ ١٩٨٠ — ١٩٨٤ م .

وقد وفقنى الله ـ تعالى ـ خلال هذه المدة ، أن أكتب ـ وأنا فى الجوار الطيب ـ تفسيراً محرراً ونافعاً ـ إن شاء الله ـ لسور : يونس ، وهود ، ويوسف ، والرعد ، وإبراهيم ، والحجر ، والنحل ، والإسراء . . .

وهأنذا ـ وأنا فى الأشهر الأخيرة من الإعارة ـ انتهى من كتابة تفسير سورة الكهف .

أسأل الله ـ تعالى ـ أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده ، وأن يعيننى على خدمة كتابه الكريم ، وعلى السير فى تفسيره حتى النهاية ، وأن يزيل من طريق كل عقبة تمنعنى من ذلك .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

المدينة المنورة ـ مساء الخميس ١٨ من رجب سنة ١٤٠٤ هـ .

١٩ من إبريل سنة ١٩٨٤ م

د / محمد سيد طنطاوى

مفتى جمهورية مصر العربية

تمهيـــد

سورة الكهف هي السورة الثامنة عشرة في ترتيب سور المصحف، فقد سبقتها في الترتيب سور: الفاتحة، والبقرة، وآل عمران ... الخ.

أما ترتيبها في النزول، فهي السورة الثامنة والستون، فقد ذكر قبلها صاحب الاتقان سبعا وستين سورة، كما ذكر أن نزولها كان بعد سورة الغاشية(1).

ومما ذكره صاحب الاتقان يترجح لدينا، أن سورة الكهف من أواخر السور المكية التي نزلت على النبي - صلى الله عليه وسلم - قبل الهجرة، إذ من المعروف عند العلماء أن السور المكية زهاء ثنتين وثمانين سورة.

قال الآلوسي: سورة الكهف، ويقال لها سورة أصحاب الكهف ... وهي مكية كلها في المشهور، وإختاره الداني ... وعدها بعضهم من السور التي نزلت جملة واحدة.

وقيل مكيه إلا قوله - تعالى - «واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ...» الآية.

وقيل هي مكية إلا أولها إلى قوله - تعالى - «جرزا» وقيل: مكية إلا قوله - تعالى - «إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا ... إلى آخر السورة.

وهي مائة وإحدى عشرة آية عند البصريين، ومائة وعشرة آيات عند الكوفيين ...»(2).

والذي تطمئن إليه النفس أن سورة الكهف كلها مكية، وقد ذكر ذلك دون أن يستثنى منها شيئا الإمام ابن كثير، والزمخشري، وأبو حيان، وغيرهم،

---

(1) الاتقان في علوم القرآن ج ۱ ص ۲۷ للسيوطي.

(2) تفسير الآلوسي ج ١٥ ص ١٩٩.

وفضلا عن ذلك فالذين قالوا بأن فيها آيات مدنية ، لم يأتوا بما يدل على صحة قولهم ، كما سيتبين لنا عند تفسير الآيات التي قيل بأنها مدنية .

٢ — وقد صدر الامام ابن كثير تفسيره لهذه السورة ، بذكر الأحاديث التي وردت في فضلها فقال ماملخصه : ذكر ماورد في فضلها ، والعشر الآيات من أولها وآخرها ، وأنها عصمة من الدجال .

قال الامام أحمد : حدثنا يزيد ، أخبرنا همام بن يحي ، عن قتادة ، عن سالم بن أبي الجعـــد ، عن معدان بن أبي طلحة ، عن أبي الدرداء عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : من حفظ عشر آيات من سورة الكهف ، عصم من الدجال .

وفي رواية عن أبي الدرداء ، عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف عصم من فتنة الدجال .

وأخرج الحاكم عن أبي سعيد الخدري ، عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال : من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة ، أضاء له النور مابينه وبين الجمعتين(١) .

٣ — عرض إجمالي لسورة الكهف :

(ا) عندما نقرأ سورة الكهف ، نراها في مطلعها تفتتح بالثناء على الله ـ تعالى ـ وبالتنويه بشأن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبالقرآن الذي نزل عليه ثم تنذر الذين نسبوا إلى الله ـ عز وجل ـ ما لايليق به ، وتصمهم بأقبح ألوان الكذب ، ثم تنهى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن التأسف عليهم ، بسبب إصرارهم على كفرهم .

قال ـ تعالى ـ : الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما لينذر بأسا شديداً من لدنه ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسنا . ماكثين فيه أبدا. وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا مالهم به من علم ولا لآبائهم ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا . .

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٥ ص ١٣٠ طبعة دار الشعب .

ثم ساقت السورة بعد ذلك فيما يقرب من عشرين آية قصة أصحاب الكهف، فحكت أقوالهم عندما التجأوا إلى الكهف، وعندما استقروا فيه واتخذوه مأوى لهم، كما حكت جانبا من رعاية الله، تعالى، لهم، ورحمته بهم . . . ثم صورت أحوالهم وهم رقود، وذكرت تساؤلهم فيما بينهم بعد أن بعثهم الله - تعالى - من رقادهم الطويل، وإرسالهم أحدهم إلى المدينة لإحضار بعض الأطعمة وإطلاع الناس عليهم . وتنازعهم فى أمرهم، ونهى الله - تعالى - عن الجدال فى شأنهم . كما ذكرت المدة متى لبثوها فى كهفهم .

قال - تعالى - ولبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا . قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السموات والأرض . أبصر به وأسمع مالهم من دونه من ولى، ولا يشرك فى حكمه أحداً .

(ح) ثم أمرت السورة الكريمة النبى - صلى الله عليه وسلم - برعاية الفقراء من أصحابه، ومدحتهم بأنهم يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه . . . كما أمرته بأن يجهر بكلمة الحق، فمن شاء بعد ذلك فليؤمن ومن شاء فليكفر، فإن الله - تعالى - قد أعد لكل فريق ما يستحقه من ثواب أو عقاب .

قال - تعالى - وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر، إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها، وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا .

(د) ثم ضربت السورة الكريمة مثلا للشاكرين والجاحدين، وصورت بأسلوب بليغ مؤثر تلك المحاورة الرائعة التى دارت بين صاحب الجنتين الغنى المغرور، وبين صديقه الفقير المؤمن الشكور، وختمت هذه المحاورة ببيان العاقبة السيئة لهذا الجاهل الجاحد .

استمع إلى القرآن وهو يبين ذلك بأسلوبه فيقول . وأحيط بثمره، فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهى خاوية على عروشها، ويقول : يا ليتنى لم أشرك بربى أحدا ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا .

(هـ) ثم أتبعت السورة هذا المثل للرجلين، بمثال آخر لزوال الحياة الدنيا وزينتها ، وببيان أحوال الناس يوم القيامة ، وأحوال المجرمين عندما يرون صحائف أعمالهم وقد خلت من كل خير .

قال - تعالى - : واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كما أنزلناه من السماء ، فاختلط به نبات الأرض ، فأصبح هشيما تذروه الرياح . وكان الله على كل شيء مقتدرا . المال والبنون زينة الحياة الدنيا، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا . ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا .

(و) وبعدأن ذكرت السورة الكريمة طرفامن قصة آدم وإبليس، وبينت أن هذا القرآن قد صرف الله فيه للناس من كل مثـــل ، وحددت وظيفة المرسلين عليهم الصلاة والسلام .

بعد كل ذلك ساقت فى أكثر من عشرين آية قصة موسى مع الخضر-عليهما السلام - وحكت مادار بينهما من محاورات . . أنتهت بأن قال الخضر لموسى: « وما فعلته عن أمرى ، ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا .

(ز) ثم جاءت بعد قصة موسى والخضر ، عليهما السلام، قصة ذى القرنين فى ست عشرة آية . بين الله ، تعالى ، فيها جانبا من النعم التى أنعم بهـا على ذى القرنين ، ومن الأعمال العظيمة التى مكنه - سبحانه - من القيام بها .

قال - تعالى - «حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا . قالوا ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا . قال مامكنى فيه ربى خير فأعينونى بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما» .

(ح) ثم ختمت السورة الكريمة ببيان ما أعده - سبحانه- للكافرين من سوء العذاب وما أعده للمؤمنين من جزيل الثواب ، وببيان مظاهر قدرته ، - عز وجل - التى توجب على كل عاقل أن يخلص له العبادة والطاعة .

قال ـ تعالى ـ : قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا . الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا . أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا . ذلك جزاؤهم بما كفروا واتخذوا آياتى ورسلى هزوا . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا . خالدين فيها لا يبغون عنها حولا . قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ، ولو جئنا بمثله مددا . قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى إنما إلهكم إله واحد . فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا .

٤ — وبعد : فهذا عرض إجمالى لأهم الموضوعات التى اشتملت عليها سورة الكهف ، ومن هذا العرض نرى :

(ا) أن القصص قد اشتمل على جانب كبير من آياتها ، ففى أوائلها نرى قصة أصحاب الكهف ، وبعدها قصة الرجلين اللذين جعل الله لأحدهما جنتين من أعناب . ثم بعد ذلك جاء طرف من قصة آدم وإبليس ، ثم جاءت قصة موسى والخضر ـ عليهما السلام ـ ثم ختمت بقصة ذى القرنين :

وقد وردت هذه القصص فى أكثر من سبعين آية ، من سورة الكهف المشتملة على عشر آيات بعد المائة .

(ب) اهتمت السورة الكريمة بإقامة الأدلة على وحدانية الله ـ تعالى ـ وعلى صدق الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما يبلغه عنه ، وعلى إثبات أن هذا القرآن من عنده ـ تعالى .

نرى ذلك فى أمثال قوله ـ تعالى ـ « الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا . قيما لينذر بأسا شديدا من لدنه » .

وقوله ـ تعالى ـ : قل إنما بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد .

وفى غير ذلك من الآيات التى حكت لنا تلك القصص المتعددة .

(ج) برز فى السورة عنصر الموازنة والمقارنة بين حسن عاقبة الأخيار وسوء عاقبة الأشرار ، نرى ذلك فى قصة أصحاب الكهف وفى قصة الرجلين وفى قصة ذى القرنين . . .

وفى الآيات التى ذكرت الكافرين وسوء مصيرهم ، ثم أعقبت ذلك بذكر المؤمنين وحسن مصيرهم كما برز فيها عنصر التسلية للرسول - صلى الله عليه وسلم - والتهوين من شأن أعدائه « فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا » .

كما برز فيها التصوير المؤثر لأهــوال يوم القيامة كما فى قوله - تعالى - : « ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة . . .

والخلاصة : أن سورة الكهف قد ساقت - بأسلوبها البليغ الذى يغلب عليه الدعوة الصحيحة ، وإلى السلوك القويم ، وإلى الخلق الكريم ، وإلى التفكير السليم الذى يهدى إلى الرشد ، وإلى كل مايوصل إلى السعادة فى الدنيا والآخرة .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

التفسير

قال ـ تعالى ـ :

« الحمدُ لله الذي أنزلَ على عبدِهِ الكتابَ ولمْ يجعلْ لهُ عِوجاً (١) قيِّماً لِيُنذِرَ بأساً شديداً مِنْ لدُنْهُ ، ويُبشِّرَ المؤْمنينَ الَّذينَ يعملُونَ الصَّالِحَاتِ أنَّ لهمْ أجْراً حسناً (٢) ماكثينَ فيه أبداً (٣) ويُنذِرَ الذينَ قالُوا اتَّخذَ اللهُ ولداً (٤) ما لهمْ بهِ مِنْ عِلْمٍ ولاَ لآبائِهِمْ ، كَبُرَتْ كلمةً تخرُجُ مِنْ أفواهِهِمْ ، إنْ يقولُونَ إلاَّ كَذِباً (٥) فلعلَّكَ باخِعٌ نفْسَكَ علَى آثارِهِمْ إنْ لمْ يؤْمِنُوا بِهذَا الْحديثِ أسَفاً (٦) إنَّا جعلْنَا ما علَى الأرضِ زِينةً لهَا ، لِنَبْلُوَهُمْ أيُّهم أحسنُ عملاً (٧) وإنَّا لجاعِلُونَ ما علَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً (٨) » .

سورة الكهف هي إحدى السور الخمس ، التي افتتحت بتقرير الحقيقة الأولى في كل دين ، وهي أن المستحق للحمد المطلق ، والثناء التام هو الله رب العالمين .

والسور الأربع الأخرى التي افتتحت بقوله ـ تعالى ـ : « الحمد لله » ، هي : الفاتحة ، والأنعام ، وسبأ ، وفاطر .

وقد بينا عند تفسيرنا لسورة الأنعام ، أن هذه السور وإن كانت قد اشتركت في هذا الافتتاح ، إلا أن لكل سورة طريقتها في بيان الأسباب

التى من شأنها أن تقنع الناس ، بأن المستحق للحمد المطلق هو الله ـ تعالى ـ وحـــده[١] .

والحمد : هو الثناء باللسان على الجميل الصادر عن إختيار من نعمة أو غيرها.

وأل فى « الحمد » للاستغراق . بمعنى أن المستحق لجميع المحامد ، ولكافة ألوان الثناء ، هو الله ـ تعالى ـ .

وإنما كان الحمد مقصورا فى الحقيقة على الله ـ تعالى ـ ، لأن كل مايستحق أن يقابل بالثناء فهو صادر عنه ، ومرجعه إليه ؛ إذ هو الخالق لكل شىء ، وما يقدم إلى بعض الناس من حمد جزاء إحسانهم ، فهو فى الحقيقة حمد لله ، لأنه ـ سبحانه ـ هو الذى وفقهم لذلك ، وأعانهم عليه .

وقد بين بعض المفسرين الحكمة فى إفتتاح بعض السور بلفظ الحمد دون المدح أو الشكر فقال ماملخصه : « اعلم أن المدح أعم من الحمد ، وأن الحمد أعم من الشكر ، أما بيان أن المدح أعم من الحمد ، فلأن المدح يحصل للعاقل ولغير العاقل ، فقد يمدح الرجل لعقله ، ويمدح اللؤلؤ لحسن شكله .

وأما الحمد فإنه لايحصل إلا للفاعل المختار ، على مايصدر منه من الانعام ، فثبت أن المدح أعم من الحمد .

وأما بيان أن الحمد أعم من الشكر ، فلأن الحمد عبارة عن تعظيم الفاعل لأجل ماصدر عنه من الانعام ، سواء اكان ذلك الانعام واصلا إليك أو إلى غيرك ، وأما الشكر فهو عبارة عن تعظيمه لأجل إنعام وصل إليك وحدك ، فثبت أن الحمد أعم من الشكر .

وكان قوله « الحمد لله » تصريحا بأن المؤثر فى وجود العالم هو الفاعل المختار ، الذى وصلت نعمه إلى جميع خلقهم ، لا إلى بعضهم ... »[٢]

---

(١) راجع تفسيرنا لسورة الانعام ص ٣٩ .

(٢) راجع تفسير الفخر الرازى لأول سورة الأنعام حـ ٤ ص ٣ . طبعة المطبعة الشرقية سنة ١٣٢٤ هـ .

وقوله : « الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا . قيما . . . » بيان للأسباب التى توجب على الناس أن يجعلوا حمدهم وعبادتهم لله - تعالى - وحده ، إذ الوصف بالموصول ، يشعر بعلية ما فى حيز الصلة لما قبله .

والعوج - بكسر العين - أكثر ما يكون إستعمالا فى المعانى ، تقول ، هذا كلام لاعوج فيه . أى : لاميل فيه .

أما العوج - بفتح العين - فأكثر ما يكون إستعمالا فى الأعيان تقول : هذا حائط فيه عوج .

وقوله : « قيما » أى : مستقيما معتدلا لا ميل فيه ولا زيغ وهما - أى : عوجا وقيما - حالان من الكتاب ويصح أن يكون قوله « قيما » منصوبا بفعل محذوف أى : جعله قيما .

والمعنى : الحمد الكامل ، والثناء الدائم ، لله - تعالى - وحده . الذى أنزل على عبده محمد - صلى الله عليه وسلم - القرآن الكريم ، ولم يجعل فيه شيئا من العوج أو الاختلاف أو التناقض ، لا فى لفظه ، ولا فى معناه ، وإنما جعله فى أسمى درجات الاستقامة والإحكام .

وإنما أمر الله - تعالى - الناس بأن يحمدوه لإنزال الكتاب على عبده محمد - صلى الله عليه وسلم - لأن فى هذا الكتاب من الهدايات مايخرجهم من الظلمات إلى النور ، ومايسعدهم فى دينهم ودنياهم وآخرتهم .

وفى التعبير عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - بالعبد ، مضافا إلى ضميره - تعالى - ، تعظيم وتشريف له - صلى الله عليه وسلم - وإشعار بأنه مهما سمت منزلته ، وعلت مكانته « فهو عبد الله - تعالى - ، وأن الذين عبدوا أو أشركوا مع الله - تعالى - بعض مخلوقاته ، قد ضلوا ضلالا بعيدا .

والتعبير عن القرآن الكريم بالكتاب ، إشارة إلى كماله وشهرته ، أى : أنزل - سبحانه - على عبده محمد - صلى الله عليه وسلم - الكتاب الكامل فى

بابه ، الغنى عن التعريف ، الحقيق باختصاص هذا الإسم به ، المعروف بهذا الاسم من بين سائر الكتب .

والمراد به إما جميع القرآن الكريم سواء منه ما نزل فعلا وماهو مترقب النزول ، وإما ما نزل منه فقط حتى نزول هذه الآية فيكون من باب التعبير عن البعض بالكل تحقيقا للنزول للجميع .

وجاء لفظ « عوجا » بصيغة التنكير ، ليشمل النفى جميع أنواع الميل والعوج ، إذ النكرة فى سياق النفى تعم . أى : لم يجعل له - سبحانه - أى شيء من العوج .

وقوله : « قيما » تأكيد فى المعنى لقوله - سبحانه - : « ولم يجعل له عوجا » لأنه قد يكون الشيء مستقيما فى الظاهر ، إلا أنه لا يخلو عن أعوجاج فى حقيقة الأمر ، ولذا جمع - سبحانه - بين نفى العوج ، وإثبات الاستقامة .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : مافائدة الجمع بين نفى العوج وإثبات الاستقامة ، وفى أحدهما غنى عن الآخر ؟

قلت : فائدته التأكيد ، فرب مستقيم مشهود له بالاستقامة ، ولا يخلو من أدنى عوج عند السبر والتصفح . وقيل : قيما على سائر الكتب ، مصدقا لها ، شاهدا بصحتها . وقيل : قيما بمصالح العباد وما لابد لهم منه من الشرائع[1].

وشبيه بهذه الآية فى مدح القرآن الكريم قوله - تعالى - : « كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد »[2] .

وقوله - سبحانه - : « إن القرآن يهدى للتى هى أقوم ... »[3] .

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٢٧٢ .

(٢) سورة إبراهيم الآية ٢ .

(٣) سورة الإسراء الآية ٩ .

وقوله - عز وجل - : « ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون . قرآنا عربيا غير ذى عوج لعلهم يتقون »(1) .

وقوله - تعالى - : « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه إختلافا كثيرا »(2) .

ثم شرع - سبحانه - فى بيان وظيفة القرآن الكريم ، بعد وصفه بالاستقامة والاحكام ، فقال : « لينذر بأسا شديدا من لدنه . . . » .

والانذار : الاعلام المقترن بتخويف وتهديد ، فكل إنذار إعلام ، وليس كل إعلام إنذارا .

واللام فى قوله « لينذر » متعلقة بأنزل ، والبأس : العذاب ، وهو المفعول الثانى للفعل ينذر ، ومفعول الأول محذوف .

والمعنى : أنزل - سبحانه - على عبده الكتاب حالة كونه لم يجعل له عوجا بل جعله مستقيما ، لينذر الذين كفروا عذابا شديدا ، صادرا من عنده - تعالى - :

والتعبير بقوله « من لدنه » يشعر بأنه عذاب ليس له دافع ، لأنه من عند الله - تعالى - القاهر فوق عباده .

أما وظيفة القرآن بالنسبة للمؤمنين ، فقد بينها - سبحانه - بعد ذلك فى قوله : « ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات . أن لهم أجرا حسنا . ماكثين فيه أبدا »

أى : أنزل الله هذا القرآن ، ليخوف به الكافرين من عذابه ، وليبشر به المؤمنين الذين يعملون الأعمال الصالحات . أن لهم من خالقهم - عز وجل - أجرا حسنا هو الجنة ونعيمها ، « ماكثين فيه أبدا » أى : مقيمين فيه إقامة باقية

(1) سورة الزمر الآية 27 ، 26 .
(2) سورة النساء الآية 82 .

دائمة لا إنتهاء لها . فالضمير فى قوله « فيه » يعود إلى الأجر الذى يراد به الجنة .

قال - تعالى - : فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا » (١) .

ثم خص - سبحانه - بالإنذار فرقة من الكافرين ، نسبوا إلى الله - تعالى - ماهو منزه عنه ، فقال : « وينذر الذين قالوا إتخذ الله ولدا . ما لهم به من علم ولا لآبائهم : كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا » .

فقوله - سبحانه - هنا : وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا .. معطوف على قوله قبل ذلك « لينذر بأسا شديدا من لدنه » من باب عطف الخاص على العام لأن الانذار فى الآية الأولى يشمل جميع الكافرين ومن بينهم الذين نسبوا إلى الله - تعالى - الولد .

والمراد بهم اليهود والنصارى ، وبعض مشركى العرب ، قال - تعالى - وقالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله » (٢) .

وقال - سبحانه - : « ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون » (٣) .

قال الآلوسى : وترك - سبحانه - إجراء الموصول على الموصوف هنا ، حيث لم يقل وينذر الكافرين الذين قالوا ... كما قال فى شأن المؤمنين : ويبشر المؤمنين الذين ... للإيذان بكفاية ما فى حيز الصلة فى الكفر على أقبح الوجوه . وإيثار صيغة الماضى فى الصلة ، للدلالة ، على تحقيق صدور تلك الكلمة القبيحة عنهم فيما سبق » (٤) .

---

(١) سورة مريم الآية ٩٧ .

(٢) سورة التوبة الآية ٣٠

(٣) سورة النحل الآية ٥٧

(٤) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ٢٠٣ .

وقوله ـ تعالى ـ : « مالهم به من علم ولا لآبائهم » توبيخ لهم على تفوههم بكلام يدل على إيغالهم فى الجهل والبهتان .

أى : مانسبوه إلى الله — تعالى — من الولد ، ليس لهم بهذه النسبة علم ، وكذلك ليس لآبائهم بهذه النسبة علم ، لأن ذلك مستحيل له — تعالى — ، كما قال ـ عز وجل ـ : « وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم ، وخرقوا له بنين وبنات بغير علم ، سبحانه وتعالى عما يصفون .

بديع السموات والأرض ، أنى يكون له ولد ، ولم تكن له صاحبة ، وخلق كل شىء ، وهو بكل شىء عليم »[1] .

و « من » فى قوله : مالهم به من علم ، مزيدة لتأكيد النفى ، والجملة مستأنفة ، و « لهم » خبر مقدم ، و « من علم » مبتدأ مؤخر ، وقوله « ولآبائهم » معطوف على الخبر .

أى : مالهم بذلك شىء من العلم أصلا ، وكذلك الحال بالنسبة لآبائهم . فالجملة الكريمة تنفى ما زعموه نفيا يشملهم ويشمل الذين سبقوهم وقالوا قولهم .

قال الكرخى : فإن قيل : إتخاذ الولد محال فى نفسه ، فكيف قال مالهم به من علم ؟ فالجواب أن انتفاء العلم بالشىء قد يكون للجهل بالطريق الموصل إليه ، وقد يكون لأنه فى نفسه محال لا يمكن تعلق العلم به ، ونظيره قوله — تعالى — : « ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به »[2] .

وقوله ـ تعالى ـ . « كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا » ذم شديد لهم على ما نطقوا به من كلام يدل على فرط جهلهم ، وعظم كذبهم . وكبر : فعل مفض لإنشاء الذم ، فهو من باب نعم وبئس ، وفاعله ضمير

(١) سورة الأنعام الآيتان ١٠٠ ، ١٠٨

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٤

محذوف ، مضمر بالنكرة بعده وهى قوله « كلمة » المنصوبة على أنها تمييز . والمخصوص بالذم محذوف .

والتقدير : كبرت هى كلمة خارجة من أفواههم تلك المقالة الشنعاء التى تفوهوا بها : وهى قولهم : اتخذ الله ولدا . فإنهم ما يقولون إلا قولا كاذبا ، محالا على الله - تعالى - ومخالفا للواقع ، ومنافيا للحق والصواب .

وفى هذا التعبير ما فيه من استعظام قبح ما نطقوا به ، حيث وصفه - سبحانه - بأنه مجرد كلام لاكته ألسنتهم ، ولا دليل عليه سوى كذبهم وافترائهم .

قال صاحب الكشاف : قوله « كبرت كلمة » قرىء كبرت كلمة بالرفع على الفاعلية ، وبالنصب على التمييز . والنصب أقوى وأبلغ ، وفيه معنى التعجب كأنه قيل : ما أكبرها كلمة .

وقوله « تخرج من أفواههم » صفة للكلمة تفيد استعظاما لاجترائهم على النطق به ، وإخراجها من أفواههم ، فإن كثيرا مما يوسوسه الشيطان فى قلوب الناس ويحدثون أنفسهم به من المنكرات ، لا يتمالكون أن يتفوهوا به ، ويطلقوا به ألسنتهم ، بل يكظمون عليه تباعدا من إظهاره ؛ فكيف بهذا المنكر ؟

فإن قلت : إلام يرجع الضمير فى « كبرت » ؟ قلت : إلى قولهم اتخذ الله ولدا . وسميت كلمة كما يسمون القصيدة بها »[1] .

وشبيه بهذه الآية فى استعظام ما نطقوا به من قبح قوله - تعالى - : « وقالوا اتخذ الله ولدا ، لقد جئتم شيئا إدا . تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا . أن دعوا للرحمن ولدا . وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا .. »[2]

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٤٧٢

(٢) سورة مريم الآيات من ٨٨ - ٩٢

ثم - سبحانه - ما يسلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه من حزن بسبب إعراض المشركين عن دعوة الحق، فقال - تعالى - : « فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا ».

قال بعض العلماء ما ملخصه : اعلم - أولا - أن لفظة « لعل » تكون للترجى فى المحبوب، والإشفاق فى المحذور. واستظهر أبو حيان أن « لعل » هنا للإشفاق عليه - صلى الله عليه وسلم - أن يبخع نفسه لعدم إيمانهم.

وقال بعضهم أن « لعل » هنا للنهى. أى لا تبخع نفسك لعدم إيمانهم .. وهو الأظهر، لكثرة ورود النهى صريحا عن ذلك، قال - تعالى - « فلا تذهب نفسك عليهم حسرات .. »(١).

وقوله « باخع » من البخع، وأصله أن تبلغ بالذبح النخاع - بكسر الباء - وهو عرق يجرى فى الرقبة. وذلك أقصى حد الذبح. يقال : بخع فلان نفسه بخعا وبخوعا.

أى : قتلها من شدة الغيظ والحزن، وقوله : « على آثارهم » أى : على أثر توليهم وإعراضهم عنك وقوله « أسفا » أى : هما وغما مع المبالغة فى ذلك، وهو مفعول لأجله.

والمعنى : لا تهلك نفسك - أيها الرسول الكريم - هما وغما، بسبب عدم إيمان هؤلاء المشركين. وبسبب إعراضهم عن دعوتك، فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب، و « إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء ».

قال الزمخشرى : شبهه - سبحانه - وإياهم حين تولوا عنه ولم يؤمنوا به، وما داخله من الوجد والأسف على توليهم، برجل فارقته أحبته وأعزته،

(١) أضواء البيان ج ٤ ص ١٤ الشيخ محمد الأمين الشنقيطى

فهو يتساقط حسرات على آثارهم ، ويبخع نفسه وجدا عليهم ، وتلهفا على فراقهم »[١] .

وقوله - تعالى - : «إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا . وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا » تعليل للنهى المقصود من الترجى فى قوله : « فلعلك باخع . . » وزيادة فى تسليته - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه من غم وحزن بسبب إصرار الكافرين على كفرهم .

أى : إنا بمقتضى حكمتنا - أيها الرسول الكريم - قد جعلنا ما على الأرض من حيوان ونبات وأنهار وبنيان . زينة لها ولأهلها . لنبلوهم أيهم أحسن عملا ، أى : أى لنختبرهم عن طريق ما جعلنا زينة للأرض ولأهلها : أيهم أتبع لأمرنا ونهينا ، وأسرع فى الاستجابة لطاعتنا ، وأبعد عن الاغترار بشهواتها ومتعها . وإنا - أيضا - بمقتضى حكمتنا ، لجاعلون ما عليها من هذه الزينة فى الوقت الذى نريده لنهاية هذه الدنيا ، «صعيدا» أى : ترابا « جرزا » أى : لا نبات فيه ، يقال أرض جرز ، أى : لا تنبت : أو كان نبات ثم زال.

ويقال : جرزت الأرض : إذا ذهب نباتها بسبب القحط ، أو الجراد الذى أتى على نباتها قال تعالى - : أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز ، فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون »[٢]

والمقصود من الآيتين الزيادة فى تثبيت قلب النبى - صلى الله عليه وسلم - وفى تسليته عما لحقه من حزن بسبب إصرار الكافرين على كفرهم .

فكأنه - سبحانه - يقول له . إمض أيها الرسول الكريم فى تبليغ ما أوحيناه إليك ، ولا تبال بإصرار الكافرين على كفرهم . ولا تذهب نفسك عليهم حسرات ، فإن حكمتنا قد اقتضت أن نجعل ما على الأرض من كل ما يصلح أن يكون زينة لها ولهم ؛ موضع إبتلاء واختبار للناس ، ليتميز الحسن من

(١) تفسير الكشاف - ٢ ص ٤٧٣ (٢) سورة السجدة . الآية ٧.

المسىء ، كما اقتضت حكمتنا - أيضاً - أن نصير ما على هذه الأرض عند انقضاء عمر الدنيا ترابا قاحلا لا نبات فيـــه ، ويعقب ذلك الجزاء على الأعمال ، وسننتقم لك من أعدائك ، فاصبر صبرا جميلا . إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا .

وفى التعبير عما على الأرض بالزينة ، إشارة إلى أن ما عليها مهما حسن شكله ، وعظم ثمنه . فهو إلى زوال ، شأنه فى ذلك شأن ما يتزين به الرجال والنساء من ملابس وغيرها ، يتزينون بها لوقت ما ثم يتركونها وتتركهم .

وقوله « لنبلوهم أيهم أحسن عملا » تعليل لما اقتضته حكمته من جعل ما على الأرض زينة لها .

أى : فعلنا ذلك لنختبر الناس على ألسنة رسلنا ، أيهم أحسن عملا ، بحيث يكون عمله مطابقا لما جئت به - أيها الرسول الكريم - ، وخالصا لوجهنا ، ومبنيا على أساس الإيمان والعقيدة الصحيحة .

قال تعالى : تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير . الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا . . . .

وفى الحديث الشريف : إن الدنيا حلوة خضرة ، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا ، واتقوا النساء ، فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت فى النساء » .

وقوله - سبحانه - : « وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا » زيادة فى التزهيد فى زينتها ، حيث إن مصيرها إلى الزوال ، وحض على التزود من العمل الصالح الذى يؤدى بالإنسان إلى السعادة الباقية الدائمة .

وبذلك نرى الآيات الكريمة ، قد قررت أن الثناء الكامل إنما هو لله - عز وجل - ، وأن الكتاب الذى أنزله على عبده ونبيه - صلى الله عليه وسلم - لا عوج فيه ولا ميل ، وأن وظيفة هذا الكتاب إنذار الكافرين بالعقاب ، وتبشير المؤمنين بالثواب ، كما أن من وظيفته تثبيت قلبه - صلى الله عليه وسلم -

وتسليته عما أصابه من أعدائه ، ببيان أن الله - تعالى - قد جعل هذه الدنيا بما فيها من زينة ، دار إختبار وإمتحان ليتبين المحسن من المسىء ، وليجازى - سبحانه - الذين أساؤا بما عملوا ، ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك قصة أصحاب الكهف ، وبين أن قصتهم ليست عجيبة بالنسبة لقدرته - عز وجل - فقد أوجد - سبحانه - ماهو أعجب وأعظم من ذلك ، فقال - تعالى - :

« أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً (٩) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ، وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً (١٠) فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً (١١) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَداً (١٢) ».

قال الإمام الرازى : اعلم أن القوم تعجبوا من قصة أصحاب الكهف ، وسألوا عنها الرسول - صلى الله عليه وسلم - على سبيل الامتحان ، فقال - تعالى - أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا ؟ لا تحسبن ذلك فإن آياتنا كلها عجب فإن من كان قادرا على خلق السموات والأرض ، وعلى تزيين الأرض بما عليها من نبات وحيوان ومعادن ، ثم يجعلها بعد ذلك صعيدا جرزا خالية من الكل ، كيف يستبعد من قدرته وحفظه ورحمته حفظ طائفة من الناس مدة ثلاثمائة سنة وأكثر فى النوم ... »(١)

وعلى ذلك يكون المقصود بهذه الآيات الكريمة ، بيان أن قصة أصحاب الكهف ليست شيئاً عجبا بالنسبة لقدرة الله - تعالى - .

وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول قصة أصحاب الكهف روايات

---

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٢١ ص ٨٢

ملخصها : أن قريشا بعثت النضر بن الحارث ، وعقبة بن أبي معيط ، إلى أحبار اليهود بالمدينة ، فقالوا لهم : سلوهم عن محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وصفوا لهم صفته ، وأخبروهم بقوله ، فإنهم أهل الكتاب الأول . وعندهم من العلم ماليس عندنا من علم الأنبياء .

فخرجا حتى قدما المدينة ، فسألا أحبار اليهود عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ووصفوا لهم أمره .

فقالوا لهما سلوه عن ثلاث نأمركم بهن . فإن أخبركم بهن ، فهو نبي مرسل وإن لم يفعل فالرجل متقول .

سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ماذا كان من خبرهم . فإنهم قد كان من خبرهم ، فإنهم قد كان لهم حديث عجيب .

وسلوه عن رجل طواف طاف المشارق والمغارب ماذا كان من خبره ؟ وسلوه عن الروح ، ماهو ؟ فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتبعوه .

فأقبل النضر وعقبة حتى قـــدما على قريش . فقالا : يا معشر قريش ، قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد ، قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أمور .

ثم جاءوا إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالوا يا محمد أخبرنا ، ثم سألوه عما قالته لهم يهود .

فقال لهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سأجيبكم غدا بما سألتم عنه ولم يستثن ـ : أي . ولم يقل إن شاء الله ـ فانصرفوا عنه .

ومكث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خمس عشرة ليلة . لايحدث الله إليه فى ذلك وحيا ، ولا يأتيه جبريل ـ عليه السلام ـ حتى أرجف أهل مكة وقالوا : وعدنا محمد غدا ، واليوم خمسة عشرة قد أصبحنا فيها ، لايخبرنا بشيء عما سألناه عنه . وحتى أحزن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مكث الوحي عنه ،

وشق عليه ما تكلم به أهل مكة ، ثم جاءه جبريل من عند الله بسورة أصحاب الكهف ، فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم ، وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية والرجل الطواف ، وقول الله - تعالى - « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا »(١) .

والخطاب فى قوله - تعالى - « أم حسبت . . . » للرسول - صلى الله عليه وسلم - ويدخل فيه غيره من المكلفين .

و « أم » فى هذه الآية هى المنقطعة ، وتفسر عند الجمهور بمعنى بل والهمزة أى : بل أحسبت ، وعند بعض العلماء تفسر بمعنى بل ، فتكون للانتقال من كلام إلى آخر . أى : بل حسبت . ويرى بعضهم أنها هنا بمعنى الهمزة التى للاستفهام الإنكارى أى : أحسبت أن أصحاب الكهف والرقيم .

والكهف : هو النقب المتسع فى الجبل ، فإن لم يكن فيه سعة فهو غار ، وجمعه كهوف .

والمراد به هنا : ذلك الكهف الذى اتخذه هؤلاء الفتية مستقرا لهم .

وأما الرقيم فقد ذكروا فى المراد به أقوالا متعددة منها : أنه اسم كلبهم ، ومنها أنه اسم الجبل أو الوادى الذى كان فيه الكهف ، ومنها أنه اسم القرية التى خرج منها هؤلاء الفتية .

ولعل أقرب الأقوال إلى الصواب أن المراد به اللوح الذى كتبت فيه أسماؤهم وأنسابهم وقصتهم ، فيكون الرقيم بمعنى المرقوم - فهو فعيل بمعنى مفعول - ومأخوذ من رقمت الكتاب إذا كتبته .

ومنه قوله - تعالى - « كلا إن كتاب الأبرار لفى عليين . وما أدراك ما عليون كتاب مرقوم »(٢) .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٥ ص ١٣٢ .
(٢) سورة المطففين الآيات ١٨ - ٢٠ .

أي مكتوب .

قال بعض العلماء : والظاهر أن أصحاب الكهف والرقيم : طائفة واحدة أضيفت إلى شيئين :

أحدهما معطوف على الآخر ، خلافا لمن قال أن أصحاب الكهف طائفة وأصحاب الرقيم طائفة أخرى وأن الله قص على نبيه فى هذه السورة الكريمة قصة أصحاب الكهف ، ولم يذكر له شيئا عن أصحاب الرقيم . وخلافا لمن زعم أن أصحاب الكهف هم الثلاثة الذين سقطت عليهم صخرة فسدت عليهم باب الكهف فدعوا الله بصالح أعمالهم فانفرجت ، وهم البار بوالديه ، والعفيف ، والمستأجر . وقصتهم مشهورة ثابتة فى الصحيح ، إلا أن تفسير الآية بأنهم هم المراد بعيد كما ترى »[1] .

والمعنى : أظننت - أيها الرسول الكريم - أن ما قصصناه عليك من شأن هؤلاء الفتية ، كان من بين آياتنا الدالة على قدرتنا شيئا عجبا ؟ لا لا تظن ذلك فإن قدرتنا لا يعجزها شىء .

ثم حكى - سبحانه - ما قالوه عندما حطوا رحالهم فى الكهف فقال : إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا : ربنا آتنا من لدنك رحمة . وهيء لنا من أمرنا رشدا » .

و « إذ » هنا ظرف منصوب بفعل تقديره » : اذكر .

و « أوى » فعل ماض - من باب ضرب - تقول : أوى فلان إلى مسكنه يأوى إذا نزله بنفسه . واستقر فيه .

و « الفتية » : جمع قلة لفتى . وهو وصف الإنسان عندما يكون فى مطلع شبابه .

---

(١) تفسير أضواء البيان جـ ٤ ص ٣٠ .

وقوله : « وهيء لنا من أمرنا » : من التهيئة بمعنى : تيسير الأمر وتقريبه وتسهيله حتى لا يخالطه عسر أو مشقة .

والمراد بالأمر هنا : ما كانوا عليه من تركهم لأهليهم ومساكنهم ، ومن مفارقتهم لما كان عليه أعداؤهم من عقائد فاسدة .

والرشد : الاهتداء إلى الطريق المستقيم مع البقاء عليه . وهو ضد الغى . يقال : رشد فلان يرشد رشدا ورشادا ، أصاب الحق .

أى : واذكر - أيها الرسول الكريم - للناس ليعتبروا ، وقت أن خرج هؤلاء الفتية من مساكنهم ، تاركين كل شيء خلفهم من أجل سلامة عقيدتهم فالتجأوا إلى الكهف ، واتخذوه مأوى لهم ، وتضرعوا إلى خالقهم قائلين : ياربنا آتنا من لدنك رحمة ، تهدى بها قلوبنا ، وتصلح بها شأننا ، وترد بها الفتن عنا ، كما نسألك ياربنا أن تهيء لنا من أمرنا الذى نحن عليه ، وهو : فرارنا بديننا ، وثباتنا على إيماننا ، ما يزيدنا سدادا وتوفيقا لطاعتك .

وقال - سبحانه - : « إذا أوى الفتية . . . » بالإظهار - مع أنه قد سبق الحديث عنهم بأنهم أصحاب الكهف لتحقيق ما كانوا عليه من فتوة، وللتنصيص على وصفهم الدال على قلتهم ، وعلى أنهم شباب فى مقتبل أعمارهم ، ومع ذلك ضحوا بكل شيء فى سبيل عقيدتهم .

والتعبير بالفعل « أوى » يشعر بأنهم بمجرد عثورهم على الكهف . ألقوا رحالهم فيه واستقروا به استقرار من عثر على ضالته ، وآثروه على مساكنهم المريحة ، لأنه واراهم عن أعين القوم الظالمين .

والتعبير بالفاء فى قوله - سبحانه - « فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة . . » يدل على أنهم بمجرد استقرارهم فى الكهف ابتهلوا إلى الله - تعالى - بهذا الدعاء الجامع لكل خير :

والتنوين فى قوله : « رحمة » : للتهويل والتنويع . أى : آتنا يا ربنا

ياربنا من عندك وحدك لا من غيرك . رحمة عظيمة شاملة لجميع أحوالنا وشئوننا . فهى تشمل الأمان فى المنزل ، والسعـــة فى الرزق ، والمغفرة للذنب .

قال القرطبى ما ملخصه : هذه الآية صريحة فى الفرار بالدين وهجرة والأهل والأوطان .. خوف الفتنة ، ورجاء السلامة بالدين والنجاة من فتنة الكافرين .. »[1] .

ثم بين ـ سبحانه ـ ما حدث لهؤلاء الفتية بعد أن لجأوا إلى الكهف ، وبعد أن دعوا الله بهذا الدعاء الشامل لكل خير . فقال : « فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددا » .

وأصل الضرب فى كلام العرب يرجع إلى معنى التقاء ظاهر جسم ، بظاهر جسم آخر بشدة .

يقال : ضرب فلان بيده الأرض إذا ألصقها بها بشدة ، وتفرعت عن هذا المعنى معان أخرى ترجع إلى شدة اللصوق .

والمراد بالضرب هنا النوم الطويل الذى غشاهم الله ـ تعالى ـ به فصاروا لايحسون شيئا مما حولهم ، ومفعول ضربنا محذوف .

والمعنى : بعد أن استقر هؤلاء الفتية فى الكهف ، وتضرعوا إلينا بهذا الدعاء العظيم ، ضربنا على آذانهم وهم فى الكهف حجابا ثقيلا مانعا من السماع ، فصاروا لا يسمعون شيئا يوقظهم ، واستمروا فى نومهم العميق هذا « سنين » ذات عدد كثير ، بينها ـ سبحانه ـ بعد ذلك فى قوله : « ولبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً » .

وخص ـ سبحانه ـ الآذان بالضرب ، مع أن مشاعرهم كلها كانت محجوبة عن اليقظة ، لأن الآذان هى الطريق الأول للتيقظ . ولأنه لا يثقل النوم إلا عندما تتعطل وظيفة السمع .

---

(١) راجع تفسير القرطبى ج ١٠ ص ٣٦٠ .

وقد ورد أن النبى - صلى الله عليه وسلم - عندما علم أن رجلا لا يستيقظ مبكرا أن قال فى شأنه ؛ « ذلك رجل قد بال الشيطان فى أذنه » أى : فمنعها من التبكير واليقظة قبل طلوع الشمس .

والتعبير بالضرب - كما سبق أن أشرنا - للدلالة على قوة المباشرة . وشدة اللصوق واللزوم ، ومنه قوله تعالى - « وضربت عليهم الذلة والمسكنة » أى : التصقتا بهم التصاقا ، لا فكاك لهم منه ، ولا مهرب لهم عنه .

ثم بين - سبحانه - ماحدث لهم بعد هذا النوم الطويل فقال : ثم بعثناهم لنعلم أى الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا ، .

وأصل البعث فى اللغة : إثارة الشىء من محله وتحريكه بعد سكون . ومنه قولهم : بعث فلان الناقة - إذا أثارها من مبركها للسير ، ويستعمل بمعنى الإيقاظ وهو المقصود هنا من قوله « بعثناهم » أى : أيقظناهم بعد رقادهم الطويل .

وقوله « لنعلم أى الحزبين ... » بيان للحكمة التى من أجلها أيقظهم الله من نومهم .

وكثير من المفسرين على أن الحزبين أحدهما : أصحاب الكهف والثانى : أهل المدينة الذين أيقظ الله أهل الكهف من رقادهم فى عهدهم ، وكان عندهم معرفة بشأنهم .

وقيل : هما حزبان من أهل المدينة الذين بعث هؤلاء الفتية فى زمانهم ، إلا أن أهل هذه المدينة كان منهم حزب مؤمن وآخر كافر .

وقيل : هما حزبان من المؤمنين كانوا موجودين فى زمن بعث هؤلاء الفتية ، وهذان الحزبان اختلفوا فيما بينهم فى المدة التى مكثها هؤلاء الفتية رقوداً .

والذى تطمئن إليه النفس أن الحزبين كليهما من أصحاب الكهف ، لأن الله - تعالى - قد قال بعد ذلك - وكذلك بعثناهم - أى الفتية - ليتساءلوا

بينهم ، قال قائل منهم كم لبثتم ، قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم ، قالوا ربكم أعلم بما لبثتم . . . » .

قال الآلوسى : « ثم بعثناهم » أى : أيقظناهم وأثرناهم من نومهم « لنعلم أى الحزبين » أى : منهم ، وهم القائلون « لبثنا يوما أو بعض يوم » والقائلون « ربكم أعلم بما لبثتم » .

وقيل : أحد الحزبين الفتية الذين ظنوا قلة زمان لبثهم ، والثانى أهـــل المدينة الذين بعث الفتية على عهدهم وكان عندهم تاريخ غيبتهم . . . والظاهر الأول لأن اللام للعهد ، ولا عهد لغير من سمعت »[1] .

والمراد بالعلم فى قوله « لنعلم . . . » إظهار المعلوم ، أى ثم بعثناهم لنعلم ذلك علما يظهر الحقيقة التى لا حقيقة سواها للناس .

ويجوز أن يكون العلم هنا بمعنى التمييز ، أى : ثم بعثناهم لنميز أى الحزبين أحصى لما لبثوا أبدا .

فهو من باب ذكر السبب وإرادة المسبب ، إذ العلم سبب للتمييز .

ولفظ « أحصى » يرى صاحب الكشاف ومن تابعه أنه فعل ماض ، ولفظ « أمدا » مفعوله ، و « ما » فى قوله « لما لبثوا » مصدرية ، فيكون المعنى ، ثم بعثناهم لنعلم أى الحزبين أضبط أمدا ـ أى مدة ـ للبثهم فى الكهف .

قال صاحب الكشاف : و« أحصى » فعل ماض ، أى : أيهم ضبط « أمدا » لأوقات لبثهم .

فإن قلت : فما تقول فيمن جعله من أفعل التفضيل ؟ قلت : ليس بالوجه السديد ، وذلك أن بناءه من غير الثلاثى المجرد ليس بقياس . . . والقياس على الشاذ فى غير القرآن ممتنع فكيف به . . .[2] ؟

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٥ ص ٢١٢

(٢) راجع الكشاف ج ٢ ص ٤٧٤

وبعضهم يرى أن لفظ «أحصى» صيغة تفضيل، وأن قوله «أمدا» منصوب على أنه تمييز وفى إظهار هذه الحقيقة للناس، وهى أن الله - تعالى - قد ضرب النوم على آذان هؤلاء الفتية ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا، ثم بعثهم بعد ذلك دون أن يتغير حالهم، أقول: فى إظهار هذه الحقيقة دليل واضح على قدرة الله - تعالى - وعلى وجوب إخلاص العبادة له، وعلى أن البعث بعد الموت حق لا ريب فيه.

وبذلك تكون هذه الآيات قد ساقت لنا قصة أصحاب الكهف على سبيل الإجمال والاختصار، ثم جاءت آيات بعد ذلك لتحكى لنا قصتهم على سبيل التفصيل والبسط، وهذه الآيات هى قوله - تعالى -:

« نَحْنُ نَقُصُّ عليكَ نبأَهُم بالحقِّ، إنَّهُم فِتْيَةٌ آمَنُوا بربِّهم وزِدْنَاهُم هُدًى (١٣) ورَبَطْنَا عَلَى قُلوبِهم إذْ قَامُوا فقالُوا ربُّنَا ربُّ السَّموات والأرضِ لن نَدْعُوَ من دُونِهِ إلهاً لقدْ قُلْنَا إذًا شطَطاً (١٤) هؤلاء قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلهَةً، لولاَ يأْتُونَ عَلَيْهِم بسُلطانٍ بيِّنٍ، فَمَن أظلمُ مِمَّن افترَى عَلَى اللهِ كذباً (١٥) وإذ اعتَزَلْتُمُوهُم وما يعبُدونَ إلا اللهَ فأْوُوا إلى الكَهْفِ ينشُرْ لكُم ربُّكُم مِنْ رَحْمَتِهِ، ويُهيِّئْ لكُم مِنْ أمرِكُم مِرْفَقاً (١٦) ».

أى: «نحن» وحدنا يا محمد، نقص عليك وعلى أمتك خبر هؤلاء الفتية قصصا لحمته وسداه الحق والصدق، لأنه قصص من ربك الذى لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء.

وقوله: «إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى» كلام مستأنف جواب عن سؤال تقديره ما قصتهم وما شأنهم بالتفصيل؟

أى: إنهم فتية أخلصوا العبادة لخالقهم، وأسلموا وجوههم لبارئهم،

وآمنوا بربوبيته ـ سبحانه ـ إيمانا عميقاً ثابتاً ، فزادهم الله بركة هذا الإخلاص والثبات على الحق ، هداية على هدايتهم ، وإيمانا على إيمانهم .

وقوله ـ سبحانه ـ « نحن نقص عليك نبأهم بالحق » إيماء إلى أن قصة هؤلاء الفتية كانت معروفة لبعض الناس ، إلا أن معرفتهم بها كانت مشوبة بالخرافات والأباطيل .

قال ابن كثير : ما ملخصه : ذكر الله ـ تعالى ـ أنهم كانوا فتية ـ أى شبابا ـ ، وهم أقبل للحق من الشيوخ ، الذين عتوا فى دين الباطل ، ولهذا كان أكثر المستجيبين لله ولرسوله شبابا ، وأما المشايخ من قريش ، فعامتهم بقوا على دينهم ، ولم يسلم منهم إلا القليل .

واستدل غير واحد من الأئمة كالبخارى وغيره بقوله « وزدناهم هدى » إلى أن الإيمان يزيد وينقص ... »[1] .

ثم حكى ـ سبحانه ـ جانبا من مظاهر هدايته لهم فقال : « وربطنا على قلوبهم إذ قاموا » .

وأصل الربط : الشد ، يقال ، ربطت الدابة ، أى : شددتها برباط ، والمراد به هنا : ما غرسه الله فى قلوبهم من قوة ، وثبات على الحق ، وصبر على فراق أهليهم : ومنه قولهم : فلان رابط الجأش ، إذا كان لا يفزع عند الشدائد والكروب .

والمراد بقيامهم : عقدهم العزم على مفارقة ما عليه قومهم من باطل ، وتصميمهم على ذلك تصميما لا تزحزحه الخطوب مهما كانت جسيمة .

ويصح أن يكون المراد بقيامهم : وقوفهم فى وجه ملكهم الجبار بثبات وقوة ، دون أن يبالوا به عندما أمرهم بعبادة ما يعبده قومهم ، وإعلانهم دين التوحيد ، ونبذهم لكل ما سواه من شرك وضلال .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ١٣٦

قال القرطبي ماملخصه : قوله ـ تعالى ـ « إذ قاموا » يحتمل ثلاثة معان .
أحدها : أن يكون هذا وصف مقامهم بين يدى الملك الكافر ، وهو مقام يحتاج إلى الربط على القلب حيث خالفوا دينه ، ورفضوا مادعاهم إليه .

والمعنى الثانى فيما قيل : إنهم أولاد عظماء تلك المدينة فخرجوا واجتمعوا وراءها من غير ميعاد ، وتعاهدوا على عبادة الله وحده .

والمعنى الثالث : أن يعبر بالقيام عن انبعاثهم بالعزم إلى الهروب إلى الله ـ تعالى ـ ومنابذة الناس ، كما تقول : قام فلان إلى أمر كذا ، إذا عزم عليه بغاية الجد »[1] .

وعلى أية حال فالجملة الكريمة تفيد أن هؤلاء الفتية كانت قلوبهم ثابتة راسخة ، مطمئنة إلى الحق الذى اهتدت إليه ، معتزة بالإيمان الذى أشربته ، مستبشرة بالإخاء الذى جمع بينها على غير ميعاد ، وصدق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذ يقول : « الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » .

ثم حكى ـ سبحانه ـ ما قالوه بعد أن استقر الإيمان فى نفوسهم فقال : « فقالوا ربنا رب السموات والأرض ، لن ندعو من دونه إلها ... » .

أى : أعلنوا براءتهم من كل خضوع لغير الله ـ عز وجل ـ حين قاموا فى وجه أعدائهم ، وقالوا بكل شجاعة وجرأة : ربنا ـ سبحانه ـ هو رب السموات والأرض ، وهو خالقهما وخالق كل شىء ، ولن نعبد سواه أى معبود آخر .

ونفوا عبادتهم لغيره ـ سبحانه ـ بحرف « لن » للإشعار بتصميمهم على ذلك فى كل زمان وفى كل مكان ، إذ النفى بلن أبلغ من النفى بغيرها .

قال الآلوسى : وقد يقال : إنهم أشاروا بالجملة الأولى ـ وهى : ربنا رب

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٠ ص ٣٦٥ .

السموات والأرض ـ إلى توحيد الربوبية ، وأشاروا بالجملة الثانية ـ لن ندعو من دونه إلها ـ إلى توحيد الألوهية ، وهما أمران متغايران ، وعبدة الأوثان لا يقولون بهذا ، ويقولون بالأول : «ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله» ، وحكى ـ سبحانه ـ عنهم أنهم يقولون : «ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى» وصح أنهم كانوا يقولون : لبيك لا شريك لك ، إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك»[1] .

وقوله ـ سبحانه ـ «لقد قلنا إذا شططا» تأكيد لبراءتهم من كل عبادة لغير الله ـ تعالى ـ .

والشطط : مصدر معناه مجاوزة الحد فى كل شىء ، ومنه : أشط فلان فى السوم ، إذا جاوز الحد ، وأشط فى الحكم إذا جاوز حدود العدل : وهو صفة لموصوف محذوف وفى الكلام قسم مقدر ، واللام فى «لقد» واقعه فى جوابه ، و «إذا» حرف جواب وجزاء فتدل على شرط مقدر .

أى : ربنا رب السموات والأرض ، لن ندعو من دونه إلها . ولو فرض أننا دعونا وعبدنا من دونه إلها آخر ، والله لنكونن فى هذه الحالة قد قلنا إذا قولا شططا ، أى : بعيدا بعدا واضحا عن دائرة الحق والصواب .

فالآية الكريمة تدل على قوة إيمان هؤلاء الفتية ، وعلى أن من كان كذلك ثبت الله ـ تعالى ـ قلبه ، وقواه على تحمل الشدائد ، كما تدل أن من أشرك مع الله ـ تعالى ـ إلها آخر ، يكون بسبب هذا الإشراك ، قد جاء بأمر شطط بعيد كل البعد عن الحق والصواب وصدق الله إذ يقول : «ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق»[2] .

ثم حكى ـ سبحانه ـ عن هؤلاء الفتية أنهم لم يكتفوا بإعلان إيمانهم

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٥ ص ٢١٩ .

(٢) سورة الحج الآية ٣١ .

الصادق ، بل أضافوا إلى ذلك إستنكارهم لما عليه قومهم من شرك فقال : « هؤلاء قومنا إتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين ... » .

و « هؤلاء » مبتدأ ، و « قومنا » عطف بيان ، وجملة « إتخذوا من دونه آلهة » هى الخبر .

و « لولا » للتحضيض ، وهو الطلب بشدة . والمقصود بالتحضيض هنا الإنكار والتعجيز ، إذ من المعلوم أن قومهم لن يستطيعوا أن يقيموا الدليل على صحة ما هم عليه من شرك .

والمراد بالسلطان البين : الحجة الواضحة .

أى : أن أولئك الفتية بعد أن إجتمعوا ، وتعاهدوا على عبادة الله ـ تعالى ـ وحده ، ونبذ الشرك والشركاء قالوا على سبيل الإنكار والاحتقار لما عليه قومهم : هؤلاء قومنا بلغ بهم السفه والجهل ، أنهم إتخذوا مع الله ـ تعالى ـ أصناما يشركونها معه فى العبادة ، هلا أتى هؤلاء السفهاء بحجة ظاهرة تؤيد دعواهم بأن هذه الأصنام تصلح آلهة لاشك أنهم لن يستطيعوا ذلك .

قال صاحب الكشاف وقوله : « لولا يأتون عليهم بسلطان بين » تبكيت لأن الإتيان بالسلطان على صحة عبادة الأوثان محال . وهو دليل على فساد التقليد ، وأنه لابد فى الدين من حجة حتى يصح ويثبت »[١] .

وشبيه بهذه الآية فى تعجيز المشركين وتجهيلهم قوله تعالى : « قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ، إن تتبعون إلا الظن ، وإن أنتم إلا تخرصون »[٢] .

وقوله ـ سبحانه ـ : « قل أرأيتم ما تدعون من دون الله ، أرونى ماذا خلقوا من الأرض ، أم لهم شرك فى السموات ، ائتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين »[٣] :

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٤٧٤ .

(٢) سورة الأنعام الآية ١٤٨ . (٣) سورة الأحقاف الآية ٤ .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بما يدل على تكذيبهم لقومهم، ووصفهم إياهم بالظلم فقال: «فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً».

أى: لا أحد أشد ظلماً من قوم افتروا على الله - تعالى - الكذب، حيث زعموا أن له شريكا فى العبادة والطاعة، مع أنه - جل وعلا - منزه عن الشريك والشركاء: «ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين».

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما تناجوا به فيما بينهم، بعد أن وضح موقفهم وضوحا صريحا حاسما، وبعد أن أعلنوا كلمة التوحيد بصدق وقوة ... فقال - تعالى -: «وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله، فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيء لكم من أمركم مرفقا».

و «إذ» يبدو أنها هنا للتعليل. والاعتزال: تجنب الشيء سواء أكان هذا التجنب بالبدن أم بالقلب. و «ما» فى قوله «وما يعبدون إلا الله» اسم موصول فى محل نصب معطوف على الضمير فى قوله «اعتزلتموهم»، وقوله: «إلا الله» استثناء متصل، بناء على أن القوم كانوا يعبدون الله - تعالى - ويشركون معه فى العبادة الأصنام. و «من» قالوا إنها بمعنى البدلية.

وقوله: «مرفقاً» من الإرتفاق بمعنى الانتفاع. وقرأ نافع وابن عامر مَرفِقا - بفتح الميم وكسر الفاء -.

والمعنى: أن هؤلاء الفتية بعد أن أعلنوا كلمة التوحيد، وعقدوا العزم على مفارقة قومهم المشركين تناجوا فيما بينهم وقالوا: ولأجل ما أنتم مقدمون عليه من اعتزالكم لقومكم الكفار، واعتزالكم الذى يعبدونه من دون الله، لأجل ذلك. فالجأوا إلى الكهف، واتخذوه مأوى ومستقراً لكم، ينشر لكم ربكم الكثير من الخير بفضله ورحمته، ويهيء لكم بدلا من أمركم الصعب أمراً آخر فيه اليسر والنفع.

وفى التعبير بقولهم - كما حكى القرآن عنهم - «ينشر لكم ربكم من

رحمته ... ، دلالة واضحة على صدق إيمانهم وحسن ظنهم الذى لاحدود له، بربهم - عز وجل - فهم عند مافارقوا أهليهم وأموالهم وزينة الحياة، وقرروا اللجوء إلى الكهف الضيق الخشن المظلم ... لم ييأسوا من رحمة الله ، بل أيقنوا أن الله - تعالى - سيرزقهم فيه الخير الوفير، وييسر لهم ماينتفعون به، ببركة إخلاصهم وصدق إيمانهم.

وهكذا الإيمان الصادق ، يجعل صاحبه يفضل المكان الخالى من زينة الحياة ، من أجل سلامة عقيدته ، على المكان الملىء باللين والرخاء الذى يحس فيه بالخوف على عقيدته .

فالآية الكريمة تدل على أن إعتزال الكفر والكافرين من أجل حماية الدين ، يؤدى إلى الظفر برحمة الله وفضله وعطائه العميم وصدق الله إذ يقول فى شأن إبراهيم - عليه السلام - « واعتز لكم وماتدعون من دون الله وادعو ربى عسى أن لا أكون بدعاء ربى شقيا ، فلما اعتز لهم ومايعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا، ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليا »(١) .

ثم تنتقل السورة الكريمة إلى الحديث عن أحوال هؤلاء الفتية بعد أن استقروا فى الكهف . وبعد أن ألقى الله - تعالى - عليهم بالنوم الطويل فتقول :

« وتَرَى الشَّمسَ إذَا طَلَعَتْ تزاوَرُ عن كَهفِهِم ذاتَ اليمينِ ، وإذا غَرَبَتْ تقرِضُهم ذاتَ الشِّمالِ وهُم فى فَجْوةٍ منه ، ذلكَ مِن آياتِ اللهِ مَنْ يهدِ اللهُ فهُو المهتَدِ ، ومَنْ يُضلِلْ فلَنْ تجِدَ لهُ وليًّا مُرْشِداً (١٧) وتَحسَبهم أيقاظاً وهُم رُقُودٌ ، ونقلِّبُهُم ذاتَ اليمينِ وذاتَ الشِّمالِ ،

(١) سورة مريم الآيات ٤٨ - ٥٠ .

وكلبُهم باسطٌ ذِرَاعَيْهِ بالوَصِيد ، لو اطلعتَ عليْهم لولَّيتَ منهم فِراراً ولمُلِئتَ منهُم رُعْباً (١٨) » .

قال الآلوسى : قوله : « وترى الشمس ... » بيان لحالهم بعد ما أووا إلى الكهف ... والخطاب لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — أو لكل أحد ممن يصلح ، وهو للمبالغة فى الظهور ، وليس المراد الإخبار بوقوع الرؤية ، بل المراد الاخبار بكون الكهف لو رأيته ترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين ... » [١] .

وقوله « تزاور » من الزور بمعنى الميل . ومنه قولهم : زار فلان صديقه ، أى : مال إليه : ومنه شهادة الزور ، لأنها ميل عن الحق إلى الباطل . ويقال : فلان أزور ، إذا كان مائل الصدر ، ويقال : تزاور فلان عن الشىء ، إذا إنحرف عنه .

وفى هذا اللفظ ثلاث قراءات سبعية : فقد قرأ ابن عامر « تزور » بزنة تحمر . وقرأ الكوفيون - عاصم وحمزة والكسائى - « تزاور » . بفتح الزاى - وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو « تزاور » بتشديد الزاى - . وأصله تتزاور فحذفت إحدى التاءين تخفيفا .

ومعنى : « تقرضهم » تقطعهم وتتجاوزهم وتتركهم . من القرض بمعنى القطع والصرم ، يقال : قرض المكان ، أى : عدل عنه وتركه .

والمعنى : أنك — أيها المخاطب — لو رأيت أهل الكهف ، لرأيتهم على هذه الصورة ، وهى أن الشمس إذا طلعت من مشرقها ، مالت عن كهفهم جهة اليمين ، وإذا غربت ، تراها عند غروبها ، تميل عنهم كذلك ، فهى فى الحالتين لا تصل إليهم ، حماية من الله — تعالى — لهم ، حتى لا تؤذيهم بحرها ، بأن تغير ألوانهم ، وتبلى ثيابهم .

(١) تفسير الآلوسى ج ١٥ ص ٢٢١ — بتصريف يسير — .

وقوله : « وهم فى فجوة منه » جملة حالية . أى : والحال أنهم فى مكان متسع من الكهف وهو وسطه . والفجوة : هى المكان المتسع ، مأخوذة من الفجا ، وهو تباعد ما بين الفخذين ، ومنه قولهم: رجل أفجى، وامرأة فجوا.

وللمفسرين فى تأويل هذه الآية إتجاهان لخصهما الإمام الرازى فقال : للمفسرين هنا قولان : أولها : أن باب ذلك الكهف كان مفتوحا إلى جانب الشمال ، فإذا طلعت الشمس كانت على يمين الكهف ، وإذا غربت كانت على شماله ، فضوء الشمس ما كان يصل إلى داخل الكهف ، وكان الهواء الطيب والنسيم الموافق يصل .

والثانى : يرى أصحابه أنه ليس المراد ذلك ، وإنما المراد أن الشمس إذا طلعت منع الله - تعالى - ضوءها من الوقوع عليهم ، وكذا القول فى حال غروبها ، وكان ذلك فعلا خارقا للعادة ، وكرامة عظيمة خص الله بها أصحاب الكهف ... »(١) .

ومن هذين الرأيين يتبين لنا أن أصحاب الرأى الأول ، يرجعون عدم وصول حر الشمس إلى هؤلاء الفتية إلى أسباب طبيعية حماهم الله - تعالى - بها ومن بينها أن الكهف كان مفتوحا إلى جهة الشمال ...

أما أصحاب الرأى الثانى فيردون عدم وصول أشعة الشمس إليهم إلى أسباب غير طبيعية ، بمعنى أن الفتية كانوا فى متسع من الكهف ، أى: فى مكان تصيبه الشمس ، إلا أن الله - تعالى - بقدرته التى لا يعجزها شىء ، منع ضوء الشمس وحرها من الوصول إليهم ، خرقا للعادة على سبيل التكريم لهم .

ومع وجاهة الرأيين ، إلا أن النفس أميل إلى الرأى الثانى ، لأن قوله - تعالى - « وهم فى فجوة منه » يشير إلى أنهم مع إتساع المكان الذى ينامون فيه - وهو الفجوة - لا تصيبهم الشمس لا عند الطلوع ولا عند الغروب وهذا

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٢١ ص ٩٩ .

أمر خارق للعادة ، ويدل على عجيب حالهم ، كما أن قوله - تعالى - بعد ذلك « ذلك من آيات الله » يشعر بأن أمر هؤلاء الفتية فيه غرابة ، وليس أمراً عاديا مألوفا .

قال الآلوسي : وأكثر المفسرين على أنهم لم تصبهم الشمس أصلا وإن إختلفوا في منشأ ذلك ، وإختار جمع منهم، أنه لمحض حجب الله - تعالى - الشمس على خلاف ما جرت به العادة ، والاشـارة تؤيد ذلك أتم تأييد ، والاستبعاد مما لا يلتفت إليه ، لا سيما فيما نحن فيه ، فان شأن أصحاب الكهف كله على خلاف العادة . . . « (١) .

وعلى هذا الرأي الثاني يكون إسم الاشاره في قوله : « ذلك من آيات الله إلى ما فعله الله - تعالى - معهم ، من حجب ضوء الشمس عنهم مع أنهم في متسع من الكهف .

أي : ذلك الذي فعلناه معهم من آياتنا الداله على قدرتنا الباهره، وإرادتنا التي لا يعجزها شيء .

وأما على الرأي الأول فيكون إسم الاشـارة مرجعه إلى ما سبق من الحديث عنهم ، كهدايتهم إلى التوحيد ، وإخراجهم من بين عبده الأوثان ، ولجوئهم إلى الكهف ، وجعل باب الكهف على تلك الكيفية ، إلى غير ذلك مما ذكر - سبحانه - عنهم .

أي : ذلك الذي ذكرناه لك عنهم - أيها الرسول الكريم - هو من آيات الله الدالة على وحدانيته وقدرته .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : « من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا » .

---

(١) تفسير الالوسي ج ١٥ ص ٢٢٣ .

أى : من يهده الله إلى طريق الحق ، ويوفقه إلى الصواب ، فهو المهتد أى : فهو الفائز بالحظ الأوفر فى الدارين ، ومن يضلله الله — تعالى — عن الطريق المستقيم ، فلن تجد له - يا محمد - نصيرا ينصره ، ومرشدا يرشده إلى طريق الحق .

كما قال — تعالى — : « من يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون » [1] .

وكما قال - سبحانه - : « ومن يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ... » [2] .

ثم صور سبحانه - بعد ذلك مشهدا عجيبا من أحوال هؤلاء الفتية فقال: « وتحسبهم أيقاظا وهم رقود ... »

والحسبان بمعنى الظن . والأيقاظ جمع يقظ وهو ضد النائم . والرقود: جمع راقد والمراد به هنا : النائم .

أى : وتظنهم - أيها المخاطب لو قدر لك أن تراهم - أيقاظا منتبهين ،والحال أنهم رقود أى : نيام

وقالوا : وسبب هذا الظن والحسبان ، أن عيونهم كانت مفتوحة ، وأنهم كانوا يتقلبون من جهة إلى جهة ، كما قال — تعالى — بعد ذلك : « ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال » .

أى : ونحركهم وهم رقود إلى الجهة التى تلى أيمانهم ، وإلى الجهة التى تلى شمائلهم ، رعاية منا لأجسامهم حتى لا تأكل الأرض شيئا منها بسبب طول رقادهم عليها .

وعدد مرات هذا التقليب لايعلمه إلا الله - تعالى - ، وما أورده المفسرون فى ذلك لم يثبت عن طريق النقل الصحيح ، لذا ضربنا صفحا عنه .

(١) سورة الأعراف الآية ١٧٨ . (٢) سورة الإسراء الاية ٩٧ .

ثم بين - سبحانه - حالة - كلبهم فقال : وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد .

والمراد بالوصيد - على الصحيح - فناء الكهف قريبا من الباب ، أو هو الباب نفسه . ومنه قول الشاعر : بأرض فضاء لا يسد وصيدها . أي : لا يسد بابها .

أي : وكلبهم الذي كان معهم في رحلتهم . ماد ذراعيه بباب الكهف حتى لكأنه يحرسهم . ويمنع من الوصول إليهم .

وما ذكره بعض المفسرين هنا عن اسم الكلب وصفاته ، لم نهتم بذكره لعدم فائدته .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : « لو أطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا » .

أي : لو عاينتهم وشاهدتهم - أيها المخاطب - لأعرضت بوجهك عنهم من هول ما رأيت . ولملىء قلبك خوفا ورعبا من منظرهم .

وقد أخذ العلماء من هذه الآية أحكاماً منها : أن صحبة الأخيار لها من الفوائد مالها .

قال ابن كثير - رحمه الله - . ربض كلبهم على الباب كما جرت به عادة الكلاب وهذا من سجيته وطبيعته حيث يربض ببابهم كأنه يحرسهم، وكان جلوسه خارج الباب . لأن الملائكة لا تدخل بيتا فيه كلب - كما ورد في الصحيح - . . . وشملت كلبهم بركتهم ، فأصابه ما أصابهم من النوم على تلك الحال ، وهذا فائدة صحبة الأخيار ، فإنه صار لهذا الكلب ذكر وخبر وشأن.(١)

وقال القرطبي - رحمه الله - ما ملخصه : قال ابن عطية : وحدثني أبي قال سمعت أبا الفضل الجوهري في جامع مصر يقول على منبر وعظه سنة تسع وستين وأربعمائة : إن من أحب أهل الخير نال من بركتهم ، كلب أحب أهل فضل وصحبهم فذكره الله في محكم تنزيله .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ١٤١ .

قلت - أى القرطبي - : إذا كان بعض الكلاب نال هذه الدرجة العليا بصحبة ومخالطة الصلحاء والأولياء حتى أخبر الله بذلك فى كتابه، فما ظنك بالمؤمنين المخالطين المحبين للأولياء والصالحين !! بل فى هذا تسلية وأنس للمؤمنين المقصرين عن درجات الكمالات، المحبين للنبى - صلى الله عليه وسلم - وآله خير آل .

روى فى الصحيح عن أنس قال : بينا أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم - خارجان من المسجد ، فلقينا رجل عند سدة المسجد ، فقال : يا رسول الله . متى الساعة ؟ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : ما أعددت لها ؟ قال : فكأن الرجل استكان ثم قال : يا رسول الله ، ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام ولا صدقة ، ولكنى أحببت الله ورسوله، قال - صلى الله عليه وسلم - : « فأنت مع من أحببت » .

وفى رواية قال أنس : فما فرحنا بعد الإسلام فرحا أشد من قول النبى - صلى الله عليه وسلم - « فأنت مع من أحببت » .

قال أنس . فأنا أحب الله ورسوله وأبا بكر وعمر ، فأرجو أن أكون معهم ، وإن لم أعمل بأعمالهم .

قلت : وهذا الذى تمسك به أنس يشمل من المسلمين كل ذى نفس ، فلذلك تعلقت أطماعنا بذلك ، وإن كنا مقصرين ، ورجونا رحمة الرحمن ، وإن كنا غير مستأهلين . (١) .

ثم حكى - سبحانه - حال هؤلاء الفتية بعد أن أعاد إليهم الحياة ، فذكر بعض أقوالهم فيما بينهم فقال - تعالى - :

« وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ، قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ، قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ، قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ، فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ

(١) تفسير القرطبى ج ١٠ ص ٣٧٢ .

بوَرِقِكُم هذه إلى المدينةِ ، فلْيَنْظُرْ أيُّها أزْكَى طعَاماً فلْيأْتِكُم برزْقٍ مِنهُ وليتلَطَّفْ ، ولا يُشْعِرَنَّ بكُم أحداً (١٩) إنَّهُم إنْ يَظْهَروا عليكُم يَرْجُمُوكُم ، أو يُعيدُوكُم في مِلَّتِهِمْ ، ولن تُفْلِحُوا إذاً أبداً (٢٠) »

وقوله ـ سبحانه ـ : « وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم » بيان للعلة التى من أجلها بعث أصحاب الكهف من نومهم الطويل .

أى : وكما أنمناهم تلك المدة الطويلة ، بعثناهم من نومهم بعدها ، ليسأل بعضهم بعضا ، وكأنهم قد أحسوا بأن نومهم قد طال .

والاقتصار على التساؤل الذى حصل الإيقاظ من أجله ، لا ينفى أن يكون هناك أسباب أخرى غيره حصل من أجلها إيقاظهم ، وإنما أفرده ـ سبحانه ـ بالذكر لاستتباعه لسائر الآثار الأخرى .

ثم حكى ـ سبحانه ـ بعض تساؤلهم فقال : « قال قائل منهم كم لبثتم » أى : كم مكثتم مستغرقين فى النوم فى هذا الكهف .

فأجابه بعضهم بقوله : « لبثنا يوماً » لظنهم أن الشمس قد غربت ، فلما رأوها لم تغرب بعد قالوا : « أو بعض يوم » أى : مكثنا نائمين بعض ساعات اليوم .

ويصح أن تكون أو للشك . أى قال بعضهم فى الرد على سؤال السائل كم لبثتم . لبثنا فى النوم يوما أو بعض يوم ، لأننا لا ندرى على الحقيقة كم مكثنا نائمين .

ثم حكى القرآن أن بعضهم رد علم مقدار مدة نومهم على جهة اليقين إلى الله ـ تعالى ـ فقال : « قالوا ربكم أعلم بما لبثتم » أى : ربكم وحده هو العليم بمقدار الزمن الذى قضيتموه نائمين فى هذا الكهف .

قال الآلوسى : وهذا رد منهم على الأولين ، على أحسن ما يكون من مراعاة حسن الأدب ، وبه كما قيل يتحقق التحزب إلى الحزبين المعهودين فيما سبق فى قوله ـ تعالى ـ « لنعلم أى الحزبين »[1] .

(١) تفسير الآلوسى ج ١٥ ص ٢٢٩ .

وقال بعضهم : وقد استدل ابن عباس على أن عدد الفتية سبعة بهذه الآية ، لأنه قد قال فى الآية قال قائل منهم وهذا واحد ، وقالوا فى جوابه : لبثنا يوما أو بعض يوم وهو جمع وأقله ثلاثة ، ثم قالوا : ربكم أعلم بما لبثتم ، وهذا قول جمع آخرين فصاروا سبعة »(١) .

ثم بين ـ سبحانه ـ ما قالوه بعد أن تركوا الحديث فى مسألة الزمن الذى قضوه نائمين فى الكهف فقال ـ تعالى ـ : «فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاما فليأتكم برزق منه وليتلطف ، ولا يشعرن بكم أحداً » .

أى : كفوا عن الحديث فى مسألة المدة التى ناموها ، عند الله . وابعثوا أحدكم « بورقكم » ـ .

أى : بدراهمكم المضروبة من الفضة » ، « إلى المدينة . التى يوجد بها الطعام الذى نحن فى حاجة إليه ، والتى هى أقرب مكان إلى الكهف .

قالوا : والمراد بها مدينتهم التى كانوا يسكنونها قبل أن يلجأوا إلى الكهف فراراً بدينهم .

« فلينظر أيها أزكى طعاما » أى : ومتى وصل إلى المدينة ، فليتفقد أسواقها ، وليتخير أى أطعمتها أحل وأطهر وأجود وأكثر بركة .

« فليأتكم برزق منه وليلطف » أى : فليأتكم بما يسد جوعكم من ذلك الأزكى طعاما ، فيكون الضمير فى « منه » للطعام الأزكى .

ويصح أن يكون للدراهم المضروبة المعبر عنها « بورقكم » أى : فليأتكم بدلا منها بطعام تأكونه ، وليتلطف ، أى : وليتكلف اللطف فى الاستخفاء ، والدقة فى استعمال الحيل حال دخوله وخروجه من المشيئة ، حتى لا يعرفه أحد من أهلها .

---

(١) تفسير فتح البيان ج ٥ ص ٥٣٤

« ولا يشعرن بكم أحدا » أي : ولا يفعلن فعلا يؤدي إلى معرفة أحد من أهل المدينة بنا .

وقوله : « إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم في ملتهم ولن تفلحوا إذاً أبدا » تعليل للأمر والنهي السابقين .

أي : قولوا لمن تختارونه لشراء طعامكم من المدينة : عليه أن يتخير أزكى الطعام ، وعليه كذلك أن لا يخبر احدا بأمركم من أهل المدينة ، لأنهم « إن يظهروا عليكم » أي : يطلعوا عليكم . أو يظفروا بكم .

وأصل معنى ظهر . أي : صار على ظهر الأرض . ولما كان ما عليها مشاهدا متمكنا منه ، استعمل تارة في الإطلاع ، وتارة في الظفر والغلبة ، وعدى بعلى .

« يرجموكم » أي إن يعرفوا مكانكم ، يرجموكم بالحجارة حتى تموتوا « أو يعيدوكم في ملتهم » الباطلة التي نجاكم الله ـ تعالى ـ منها .

« ولن تفلحو إذاً أبداً » أي : وإن عدتم إليها بعد إذ نجاكم الله ـ تعالى ـ منها ، وعصمكم من اتباعها « فلن تفلحوا إذاً أبدا » لا في الدنيا ولا في الآخـــرة .

وهكذا نجد هاتين الآيتين تصوران لنا بأسلوب مؤثر بليغ « حال الفتية وهم يتناجون فيما بينهم ، بعد أن استيقظوا من رقادهم الطويل .

ونراهم في تناجيهم ـ بعد أن تركوا الحديث عن المدة التي لبثوها في نومهم ـ نراهم حذرين خائفين ، ولا يدرون أن الأعوام قد كرت . وأن عجلة الزمن قد دارت ، وأن أجيالا قد تعاقبت . وأن مدينتهم التي يعرفونها قد تغيرت معالمها : وأن أعداءهم الكافرين قد زالت دولتهم

ثم تمضي السورة الكريمة لتحدثنا عن مشهد آخر من أحوال هؤلاء الفتية . مشهد تتجلى فيه قدرة الله ـ تعالى ـ على أبلغ وجـــه ، كما تتجلى فيه حكمته ووحدانيته ، استمع إلى القرآن الكريم وهو يحدثنا عن ذلك فيقول :

« وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق ، أن الساعة لا ريب فيها ، إذ يتنازعون بينهم أمرهم ، فقالوا ابنوا عليهم بنيانا ربهم أعلم بهم ، قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجدا (٢١) » .

فقوله ـ سبحانه ـ : « وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق ، وأن الساعة لا ريب فيها » بيان للحكمة التي من أجلها أطلع الله ـ تعالى ـ الناس على هؤلاء الفتية .

قال الآلوسي ما ملخصه : وأصل العثور السقوط للوجه يقال : عثر عثورا وعثارا إذا سقط لوجهه ، ومنه قولهم في المثل : الجواد لا يكاد يعثر . ثم تجوز به في الاطلاع على أمر من غير طلبه .

وقال بعضهم : لما كان كل عاثر ينظر إلى موضع عثرته ، ورد العثور بمعنى الإطلاع والعرفان ، فهو في ذلك مجاز مشهور بعلاقة السببية .

ومفعول « أعثرنا » محذوف لقصد العموم ، أي : وكذلك أطلعنا الناس عليهم »[1] .

والمعنى : وكما أنمناهم تلك المدة الطويلة ، وبعثناهم هذا البعث الخاص ، أطلعنا الناس عليهم ليعلم هؤلاء الناس عن طريق المعاينة والمشاهدة ، أن وعد الله » بالبعث « حق » وصدق ، وليعلموا كذلك أن الساعة ، أي القيامة ، آتية لا ريب فيها ، ولا شك في حصولها ، فإن من شاهد أهل الكهف ، وعرف أحوالهم ، أيقن بأن من كان قادراً على إنامتهم تلك المدة الطويلة ثم على بعثهم بعد ذلك . فهو قادر على إعادة الحياة إلى الموتى ، وعلى بعث الناس يوم القيامة الحساب والجزاء .

(١) تفسير الآلوسي ج ١٤ ص ٢٢٣

وقد ذكروا فى كيفية إطلاع الناس عليهم روايات ملخصها : أن زميلهم الذى أرسلوه بالدراهم إلى السوق ليشترى لهم طعاما عندما وصل إلى سوق المدينة ، عمد إلى رجل ممن يبيع الطعام ، فدفع إليه ما معه من نقود لكى يأخذ فى مقابلها طعاما ، فلما رأى البائع النقود أنكرها ـ لأنها مصنوعة منذ زمن بعيد ـ وأخذ يطلع عليها بقية التجار ، فقالوا له : أين وجدت هذه الدراهم ؟ فقال لهم : بعت بها أمس شيئا من التمر ، وأنا من أهل هذه المدينة ، وقد خرجت أنا وزملائى إلى الكهف خوفا من إيذاء المشركين لنا فأخذوه إلى ملكهم وقصوا عليه قصته . فسر الملك به ، وذهب معه إلى الكهف ليرى بقية زملائه فلما رآهم سلم عليهم . . ثم أماتهم الله ـ تعالى ـ »[1] .

ثم بين ـ سبحانه ـ ما كان من أمرهم بعد وفاتهم واختلاف الناس فى شأنهم، فقال: إذ يتنازعون بينهم امرهم، فقالوا ابنوا عليهم بنيانا ربهم أعلم بهم . .

والظرف « إذ » متعلق بمحذوف تقديره : اذكر ، ويتنازعون من التنازع بمعنى التخاصم والاختلاف ، والضمير فى « أمرهم » يعود إلى الفتية ،

والمعنى : لقد قصصنا عليك ـ أيها الرسول الكريم ـ قصة هؤلاء الفتية . وبينا لك أحوالهم عند رقادهم ، وبعد بعثهم من نومهم ، وبعد الاعثار عليهم ، وكيف أن الذين عثروا عليهم صاروا يتنازعون فى شأنهم . فمنهم من يقول إنهم وجدوا فى زمن كذا ، ومنهم من يقول إنهم مكثوا فى كهفهم كذا سنة ، ومنهم من يقول نبنى حولهم بنيانا صفته كذا .

ويجوز أن يكون الضمير فى « أمرهم » يعود إلى الذين أطلعهم الله على الفتية ، فيكون المعنى : اذكر وقت تنازع هؤلاء الذين عثروا على الفتية وتخاصمهم فيما بينهم، حيث إن بعضهم كان مؤمنا. وبعضهم كان كافرا، وبعضهم كان يؤمن ببعث الأرواح والأجساد ، وبعضهم كان يؤمن ببعث الأجساد فقط .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٥ ص ١٤٢

وقوله – تعالى – : « فقالوا ابنوا عليهم بنيانا » تفسير للمتنازع فيه، وبيان لما قاله بعض الذين اطلعوا على أمر الفتية .

أى اختلف الذين عثروا على الفتيه فقال بعضهم : ابنوا على باب كهفهم بنيانا . حتى لا يصل الناس إليهم ، وحتى نصونهم من الأذى .

وقوله - تعالى - : « ربهم أعلم بهم » يحتمل أنه حكاية لكلام طائفة « من المتنازعين فى شأن أصحاب الكهف ، وقد قالوه ليقطعوا النزاع فى شأنهم ، وليفوضوا أمرهم إلى الله – تعالى – .

ويحتمل أن يكون من كلام الله – تعالى ردا للخائضين فى شأنهم .

أى : اتركوا أيها المتنازعون ما انتم فيه من تنازع ، فإنى أعلم منكم بحال أصحاب الكهف .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : « قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجدا » .

أى : أن الذين اعثرهم الله على أصحاب الكهف قال بعضهم : ابنوا على هؤلاء الفتية بنيانا يسترهم .. وقال الذين غلبوا على أمرهم ، وهم أصحاب الكلمة النافذة ، والرأى المطاع ، لنتخذن على هؤلاء الفتية مسجدا ، أى : معبدا تبركا بهم .

قال الآلوسى : واستدل بالآية على جواز البناء على قبور الصلحاء «واتخاذ مسجد عليها ، وجواز الصلاة فى ذلك وممن ذكر ذلك الشهاب الخفاجى فى حواشيه على البيضاوى . وهو قول باطل عاطل، فاسد كاسد . فقد روى أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لعن الله زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج .

وزاد مسلم : « ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد فإنى أنهاكم عن ذلك » .

وروى الشيخان عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم - قال : « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ... »(١) .

ثم حكت السورة بعد ذلك ما أثير من جدل حول عدد أصحاب الكهف وأمرت النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يكل ذلك إلى الله - تعالى - وحده ، فقال - سبحانه - :

« سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ، وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ، رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ، فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا ، وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٢٢) » .

أي : سيختلف - الناس في عدة أصحاب الكهف - أيها الرسول الكريم - فمن الناس من سيقول إن عدتهم ثلاثة رابعهم كلبهم ، ومنهم من يقول : إنهم خمسة سادسهم كلبهم .

فالضمير في قوله « سيقولون » وفي الفعلين بعده . يعود لأولئك الخائضين في قصة أصحاب الكهف وفي عددهم ، على عهد النبي - صلى الله عليه وسلم - .

قال الجمل : قيل إنما أتى بالسين في هذا لأن الكلام طيا وإدماجا تقديره فإذا أجبتهم عن سؤالهم عن قصة أهل الكهف ، فسلهم عن عددهم فإنهم سيقولون ثلاثة .

ولم يأت بها في بقية الأفعال ، لأنها معطوفة على ما فيه السين فأعطيت حكمه من الاستقبال »(٢) .

وقال صاحب الكشاف . فإن قلت . لماذا جاء بسين الاستقبال في الأول دون الآخرين ؟

---

(١) راجع تفسير الآلوسي ج ١٥ ص ٢٣٧ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ١٦ .

قلت : فيه وجهان : أن تدخل الآخرين فى حكم السين ، كما تقول : قد أكرم وأنعم .

تريد معنى التوقع فى الفعلين جميعا وأن تريد بيفعل معنى الاستقبال الذى هو صالح له »[1] .

وقوله « ثلاثة » خبر لمبتدأ محذوف ، أى : هم ثلاثة .

وقوله ـ تعالى ـ : « رجما بالغيب » رد على القائلين بأنهم ثلاثة رابعهم كلبهم ، وعلى القائلين بأنهم خمسة سادسهم كلبهم .

وأصل الرجم : الرمى بالحجارة ، والمراد به هنا : القول بالظن والحدس والتخمين بدون دليل أو برهان .

قال صاحب الكشاف « قوله : « رجما بالغيب » أى : رميا بالخبر الخفى وإتيانا به ، كقوله « ويقذفون بالغيب من مكان بعيد » أى : يأتون به . أو وضع الرجم موضع الظن فكأنه قيل ظنا بالغيب . لأنهم أكثروا أن يقولوا : رجم بالظن ، مكان قولهم : ظن ، حتى لم يبق عندهم فرق بين العبارتين . ألا ترى إلى قول زهير : وما هو عنها بالحديث المرجم .. أى : المظنون »[2] .

وقوله : « رجما » منصوب بفعل مقدر . والباء فى « بالغيب » للتعديه ، أى : يرمون رميا بالخبر الغائب عنهم ، والذى لا إطلاع لهم على حقيقته ، شأنهم فى ذلك شأن من يرمى بالحجارة التى لا تصيب المرمى المقصود .

ثم حكى ـ سبحانه ـ القول الذى هو أقرب الأقوال إلى الصواب فقال : « ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم » .

أى : وبعض الناس ـ وهم المؤمنون ـ يقولون إن عدد أصحاب الكهف سبعه أفراد وثامنهم كلبهم ،

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٤٧٨ .

(٢) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٤٧٨ .

قال ابن كثير : « يقول - تعالى - مخبرا عن اختلاف الناس فى عدة أصحاب الكهف . فحكى ثلاثة أقوال ، فدل على أنه لا قائل برابع . ولما ضعف القولين الأولين بقوله : « رجما بالغيب » .

أى : قول بلا علم ، كمن يرمى إلى مكان لا يعرفه ، فإنه لا يكاد يصيب ، وإذا أصاب فبلا قصد . ثم حكى الثالث وسكت عليه أوقرره بقوله : « وثامنهم كلبهم » دل على صحته ، وأنه هو الواقع فى نفس الأمر »[1] .

وقال الآلوسى ما ملخصه : والجملة الواقعة بعد العدد فى قوله - تعالى - : « ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم » فى موضع الصفة له ، والواو الداخلة على الجملة الواقعة صفة للنكرة ، كما تدخل على الواقعة حالا عن المعرفة فى قولك : جاءنى رجل ومعه آخر ، ومررت بزيد وفى يده سيف ، ومنه قوله - تعالى - : « وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم » .

وفائدتها توكيد لصوق الصفة بالموصوف ، والدلالة على أن إتصافه بها أمر ثابت مستقر وهى التى أذنت هنا بأن قائلى ما ذكر ، قالوه عن ثبات علم . وطمأنينة نفس ، ولم يرجموا بالظن كما رجم غيرهم فهو الحق دون القولين الأولين ... »[2] .

ثم أمر الله - تعالى - النبى - صلى الله عليه وسلم - أن يخبر الخائضين فى عدة أصحاب الكهف ، بما يقطع التنازع الذى دار بينهم فقال : « قل ربى أعلم بعدتهم » .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لمن خاضوا فى عدة أصحاب الكهف : ربى - عز وجل - أقوى علما منكم بعدتهم - أيها المتنازعون ، فإنكم إن علمتم عنهم شيئا علما ظنيا . فإن علم ربى بهم هو علم تفصيلى يقينى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .

ثم أثبت - سبحانه - علم عددهم لقليل من الناس فقال : « ما يعلمهم إلا قليل » أى : ما يعلم أصحاب الكهف إلا عدد قليل من الناس .

(١) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ١٥٣ (٢) تفسير الآلوسى جـ ٥ ص ٢٤١

ولا تعارض بين هذه الجملة وبين سابقتها ، لأن علم هذا العدد القليل من الناس بعدة أصحاب الكهف ، هو علم إجمالى ظنى . . . أما علم الله - تعالى - فهو علم تفصيلى يقينى شامل لجميع الأزمنة.

فضلا عن أن علم هؤلاء القلة من الناس بعدة أصحاب الكهف ، نابع من إعلام الله - تعالى - لهم عن طريق الوحى كالرسول - صلى الله عليه وسلم - أو من يطلعه الرسول - صلى الله عليه وسلم على عدتهم .

قال ابن عباس - رضى الله عنهما - : أنا من أولئك القليل كانوا سبعة . ثم ذكر أسماءهم .

ثم نهى الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - عن الجدال المتعمق فى شأنهم ، كما نهاه عن استفتاء أحد فى أمرهم فقال - تعالى - فلا تمار فيهم إلا مراءا ظاهرا . ولا تستفت فيهم منهم أحدا » .

والمراء : هو الجدال والمحاجة فيما فيه مرية ، أى : تردد . مأخوذ من مريت الناقة إذا كررت مسح ضرعها للحلب .

والاستفتاء : طلب الفتيا من الغير . والفاء فى قوله « فلا تمار » للتفريع .

أى : إذا كان الشأن كما أخبرناك عن حال أصحاب الكهف ، فلا تجادل فى أمرهم أحداً من الخائضين فيه إلا جدالا واضحا لا يتجاوز حدود ما قصصناه عليك - أيها الرسول الكريم - ولا تطلب الفتيا فى شأنهم من أحد ، لأن ما قصصناه عليك من خبرهم ، يغنيك عن السؤال وعن طلب الإيضاح من أهل الكتاب أو من غيرهم .

ثم نهى الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم عن الإخبار عن فعل شىء فى المستقبل إلا بعد تقديم مشيئة الله - عز وجل - فقال :

« ولا تقولَنَّ لشَىْءٍ إنِّى فاعِلٌ ذلكَ غداً (٢٣) إلاَّ أنْ يشاءَ اللهُ ،

وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا (٢٤) »

قال القرطبي : قال العلماء : عاتب الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - على قوله للكفار حين سألوه عن الروح والفتية وذى القرنين : غدا أخبركم بجواب أسئلتكم ، ولم يستثن فى ذلك .

فاحتبس الوحى عنه خمسة عشر يوما حتى شق ذلك عليه ، وأرجف الكفار به ، فنزلت عليه هذه السورة مفرجة . وأمر فى هذه الآية ألا يقول فى أمر من الأمور إنى أفعل غدا كذا وكذا ، إلا أن يعلق ذلك بمشيئة الله - عز وجل - حتى لا يكون محققا لحكم الخبر، فإنه إذا قال : لأفعلن ذلك ولم يفعل كان كاذبا ، وإذا قال ، لأفعلن ذلك - إن شاء الله - خرج عن أن يكون محققا للمخبر عنه »[1] .

والمراد بالغد : ما يستقبل من الزمان ، ويدخل فيه اليوم الذى يلى اليوم الذى أنت فيه دخولا أوليا . وعبر عما يستقبل من الزمان بالغد للتأكيد .

أى : ولا تقولن - أيها الرسول الكريم - لأجل شىء تعزم على فعله فى المستقبل : إنى فاعل ذلك الشىء غدا ، إلا وأنت مقرن قولك هذا بمشيئة الله - تعالى - وإذنه ، بأن تقول : سأفعل هذا الشىء غدا بإذن الله ومشيئته ، فإن كل حركة من حركاتك - ومن حركات غيرك - مرهونة بمشيئة الله - تعالى - وإرادته ، وما يتعلق بمستقبلك ومستقبل غيرك من شئون ، هو فى علم الله - تعالى - وحده .

وليس المقصود من الآية الكريمة نهى الإنسان عن التفكير فى أمر مستقبله وإنما المقصود نهيه عن الجزم بما سيقع فى المستقبل ، لأن ما سيقع علمه عند الله - تعالى - وحده .

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٠ ص ٣٨٥

والعاقل من الناس هو الذى يباشر الأسباب التى شرعها الله — تعالى — سواء أكانت هذه الأسباب تتعلق بالماضى أم بالحاضر أم بالمستقبل، ثم يقرن كل ذلك بمشيئة الله — تعالى — وإرادته . فلا يقول : سأفعل غدا كذا وكذا لأننى أعددت العدة لذلك ، وإنما يقول : سأفعل غدا كذا وكذا إذا شاء الله - تعالى - ذلك وأراد ، وأن يوقن بأن إرادة الله فوق إرادته ، وتدبيره - سبحانه - فوق كل تدبير ..

وكم من أمور أعد الإنسان لها أسبابها التى تؤدى إلى قضائها . . . ثم جاءت إرادة الله - تعالى - فغيرت ما أعده ذلك الإنسان ، لأنه لم يستشعر عند إعداده للأسباب أن . إرادة الله - تعالى - فوق إرادته ، ، وأنه - سبحانه - القادر على خرق هذه الأسباب ، وخرق ماتؤدى اليه ، ولأنه لم يقل عندما يريد فعله فى المستقبل : إن شاء الله .

وقوله : « واذكر ربك إذا نسيت » تأكيد لما قبله أى : لا تقولن أفعل غدا إلا ملتبسا بقول : إن شاء الله ، واذكر ربك - سبحانه - إذا نسيت تعليق القول بالمشيئة ، أى : عند تذكرك بأنك لم تقرن قولك بمشيئة الله ، فأت بها .

قال الآلوسى : قوله « واذكر ربك » أى : مشيئة ربك ، فالكلام على حذف مضاف ، إذا نسيت » أى : إذا فرط منك نسيان ذلك ثم تذكرته . فهو أمر بالتدارك عند التذكير ... » [1] .

وقال بعض العلماء ما ملخصه : للمفسرين فى تفسير قوله - تعالى - : « واذكر ربك إذا نسيت » قولان :

الأول . أن هذه الجملة مرتبطة ومتعلقة بما قبلها : والمعنى : إنك إن قلت

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ٢٤٩

سأفعل غدا كذا ونسيت أن تقول إن شاء الله، ثم تذكرت بعد ذلك فقل: إن شاء الله.

أي: أذكر ربك معلقا على مشيئته ما تقول أنك ستفعله غدا إذا تذكرت بعد النسيان.

وهذا القول هو الظاهر، لأنه يدل عليه ما قبله، وهو قوله - تعالى -: «ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله» وهو قول الجمهور.

الثاني: أن هذه الجملة لا تعلق لها بما قبلها، وأن المعنى: إذا وقع منك النسيان لشيء ما ذكر ربك، لأن النسيان من الشيطان. كما قال - تعالى - عن فتى موسى: «وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره...»(1).

وعلى هذا القول يكون المراد بالذكر: التسبيح والاستغفار. وعلى الأول المراد به أن تقول: إن شاء الله أو ما يشبه ذلك.

والمقصود من هذه الآية الكريمة بيان أن تعليق الأمور بمشيئة الله - تعالى - هو الذي يجب أن يفعل، لأنه - تعالى - لا يقع شيء إلا بمشيئته فإذا نسي المسلم ثم تذكر، فإنه يقول: إن شاء الله، ليخرج بذلك من عهدة عدم التعليق بالمشيئة، وبذلك يكون قد فوض أمره إلى الله - تعالى -.

وليس المقصود بها التحلل من يمين قد وقعت، لأن تداركها قد فات بالانفصال، ولأن الاستثناء المتأخر لا أثر له ولا تحل به اليمين.

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله: «وقل عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشدا» أي: قدم - أيها الرسول الكريم - مشيئة ربك عند إرادة فعل شيء، وائت بها إذا نسيت ذلك عند التذكر، وقل عسى أن يوفقني ربي ويهديني ويدلني على شيء أقرب في الهداية والإرشاد من هذا الذي قصصته عليكم من أمر أصحاب الكهف.

---

(1) أضواء البيان جـ ٤ ص ٨٧.

قال صاحب الكشاف : وقوله : « لأقرب من هذا . . » اسم الإشارة يعود إلى نبأ أصحاب الكهف : ومعناه : لعل الله يؤتين من البينات والحجج على أنى نبى صادق ، ما هو أعظم فى الدلالة وأقرب رشدا من نبأ أصحاب الكهف .

وقد فعل - سبحانه - ذلك ، حيث آتاه من قصص الأنبياء ، والإخبار بالغيوب ، ما هو أعظم من ذلك وأذل »[1] .

ثم بين - سبحانه على وجه اليقين ، المدة التى قضاها أصحاب الكهف راقدين فى كهفهم ، فقال - تعالى - :

« ولَبِثُوا فى كَهفِهمْ ثَلاثَمِائَةٍ سِنِينَ وازدَادُوا تِسْعًا (٢٥) قل اللهُ أعلمُ بمَا لَبِثُوا ، له غَيْبُ السَّمواتِ والأرضِ ، أَبْصِرْ بِه وَأَسمِعْ ، ما لهُمْ مِنْ دُونِه مِنْ وَلِيٍّ ولا يُشْرِكُ فى حُكْمِهِ أَحداً (٢٦) » .

اى : أن أصحاب الكهف مكثوا فى كهفهم راقدين ثلاثمائة سنين ، وازدادوا فوق ذلك تسع سنين .

فالآية الكريمة إخبار منه - سبحانه - عن المدة التى لبثها هؤلاء الفتية مضروبا على آذانهم .

وقوله : « قل الله أعلم بما لبثوا ، تقرير وتأكيد لكون المدة التى لبثوها هى ما سبق بيانه فى الآية السابقة :

فكأنه - سبحانه - يقول : هذا هو فصل الخطاب فى المدة التى لبثوها راقدين فى كهفهم ، وقد أعلمك الله - تعالى - بذلك - أيها الرسول الكريم - ، وما أعلمك به فهو الحق الصحيح الذى لا يحوم حوله شك ، فلا تلتفت إلى غيره من أقوال الخائضين فى أمر هؤلاء الفتية ، فإن الله - تعالى - هو الأعلم بحقيقة ذلك .

---

(١) تفسير الكشاف ج٢ ص ٤٨٠ .

ويرى بعضهم أن قوله - تعالى - : « ولبثوا فى كهفهم ... » حكاية لكلام أهل الكتاب فى المدة التى لبثها أهل الكهف قياما فى أهل كهفهم ، وأن قوله « قل الله أعلم بما لبثوا » للرد عليهم .

وقد حكى الإمام إبن كثير القولين ، ورجح الأول منهما فقال : هذا خبر من الله - تعالى - لرسوله - صلى الله عليه وسلم - بمقدار ما لبث أصحاب الكهف فى كهفهم ، منذ أن أرقدهم الله إلى أن بعثهم وأعثر عليهم أهل ذلك الزمان . كان مقداره ثلاثمائة سنين وتسع سنين بالهلاليتين وهى ثلاثمائة سنة بالشمسية ، فإن تفاوت ما بين كل مائة سنة بالقمرية إلى الشمسية ثلاث سنين . فلهذا قال بعد الثلاثمائة « وازدادوا تسعا » .

وقال قتادة فى قوله : « ولبثوا فى كهفهم ... » وهذا قول أهل الكتاب وقد رده الله - تعالى - بقوله : « قل الله أعلم بما لبثوا » .

وفى هذا الذى قاله قتادة نظر ، فان الذى بأيدى أهل الكتاب أنهم لبثوا ثلاثمائة سنة من غير تسع ، ولو كان الله - تعالى - قد حكى قولهم لما قال : « وازدادوا تسعا » ، وظاهر الآيه أنه خبر عن الله لا حكاية عنهم ... »[1] .

وقوله - تعالى - : « له غيب السموات والأرض » تأكيد لاختصاصه - عز وجل - بعلم المدة التى لبثوها ، أى : له - سبحانه - وحده علم ما خفى وغاب من أحوال السموات والأرض ، وأحوال أهلهما ، كما قال - تعالى - : « إن الله لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء » .

وقوله - سبحانه - : « أبصر به وأسمع » صيغتا تعجب : أى : ما أبصره وما أسمعه - تعالى - والمراد أنه - سبحانه - لا يغيب عن بصره وسمعه شىء .

وجاءت هذه الجملة الكريمة بصيغة التعجب ، للدلالة على أن أمره - تعالى - فى الإدراك خارج عما عليه إدراك المبصرين والسامعين . إذ لا يحجبه شىء ، ولا يتفاوت عنده لطيف وكثيف ، وصغير وكبير ، وجلى وخفى .

---

(1) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ١٤٦ .

ثم ختم ـ سبحانه ـ الآية الكريمة بقوله : « ما لهم من دونه من ولى ولا يشرك فى حكمه أحدا » .

أى : ليس لأهل السموات ولا لأهل الأرض ولا لغيرهما غير الله ـ تعالى ـ نصير ينصرهم ، أو ولى يلى أمرهم . ولا يشرك ـ سبحانه ـ فى حكمه أو قضائه أحدا كائنا من كان من خلقه . كما قال ـ تعالى ـ « ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين » .

هذا ، وقد ذكر المفسرون عند تفسيرهم لهذه الآيات مسائل منها .

(ا) مكان الكهف الذى لجأ إليه هؤلاء الفتية ، والزمن الذى ظهروا فيه .

أما مكان الكهف فللعلماء فيه أقوال : من أشهرها أنه كان بالقرب من مدينة تسمى « أفسوس » وهى من مدن تركيا الآن ، قالوا إنها تبعد عن مدينة « إزمير » بحوالى أربعين ميلا . وتعرف الآن باسم : « أيازبوك » .

وقيل : إنه كان ببلدة تدعى « أبسس » ـ بفتح الهمزة وسكون الباء وضم السين ـ وهذه البلدة من ثغور « طرسوس » بين مدينة حلب بسوريا ، وبلاد أرمينية وأنطاكية .

وقيل : إنه كان ببلدة تسمى « بتراء » بين خليج العقبة وفلسطين . . . إلى غير ذلك من الأقوال الكثيرة ، التى لا نرى داعيا لذكرها ، لقلة فائدتها .

وأما الزمن الذى ظهروا فيه ، فيرى كثير من المفسرين أنه كان فى القرن الثالث الميلادى فى عهد الإمبراطور الرومانى « دقيانوس » الذى كان يحمل الناس حملا على عبادة الأصنام ، ويعذب من يخالف ذلك .

(ب) العبر والعظات والأحكام التى تؤخذ من هذه القصة . ومن أهمها :

١ ـ إثبات صدق الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما يبلغه عن ربه ، حيث أخبر ـ عن طريق ما أوحاه الله إليه من قرآن ـ عن قصة هؤلاء الفتية ، وبين وجه الحق فى شأنهم ورد على ما خاضه الخائضون فى أمرهم ، وصدق الله إذ يقول : « نحن نقص عليك نبأهم بالحق . . . » .

٢ ـ الكشف عن جانب من بلاغة القرآن الكريم فى قصصه ، حيث ساق هذه القصة مجملة فى الآيات الأربع الأولى منها ثم ساقها مفصلة بعد ذلك تفصيلا حكيما . وفى ذلك ما فيه من تمكين أحداثها وهداياتها فى القلوب .

والمرشد العاقل هو الذى ينتفع بهذا الأسلوب القرآنى فى وعظه وإرشاده .

٣ ـ بيان أن الإيمان متى استقر فى القلوب ، هان كل شىء فى سبيله . فهؤلاء الفتية آثروا الفرار بدينهم ، على البقاء فى أوطانهم ، لكى تسلم لهم عقيدتهم ... فهم كما قال ـ سبحانه ـ فى شأنهم : « إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى » .

٤ ـ بيان أن على المؤمن أن يلجأ إلى الله بالدعاء ـ لا سيما عند الشدائد والكروب ـ وأنه متى اتقى الله ـ تعالى ـ وأطاعه ، جعل له ـ سبحانه ـ من كل ضيق فرجا ، ومن كل هم مخرجا ، ورزقه من حيث لا يحتسب، وصانه من السوء .

فهؤلاء الفتيه عندما لجأوا إلى الكهف ، تضرعوا إلى الله بقولهم : « ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشدا » .

فأجاب الله دعاءهم ، حيث ضرب على آذانهم فى الكهف سنين عددا ، وجعل الشمس لا تصل إليهم مع أنهم فى فجوة من الكهف . وصان أجسادهم من البلى والتعفن بأن قلبهم ذات اليمين وذات الشمال ، وأنام كلبهم بعتبة باب الكهف حتى لكأنه حارس لهم : وألقى الهيبة عليهم بحيث لو رآهم الرائى لولى منهم فرارا . ولملىء قلبه رعبا من منظرهم .

وسخر أصحاب النفوذ والقوة للدفاع عنهم . وللتعبير عن تكريمهم لهم بقولهم : « لنتخذن عليهم مسجدا » .

٥ ـ بيان أن التفكير السليم . المصحوب بالنية الطيبة. والعزيمة الصادقة،

يؤدى إلى الاهتداء إلى الحق ، وأن القلوب النقية الطاهرة تتعاون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان . وأن فضح الباطل والكشف عن زيفه .. دليل على سلامة اليقين .

فهؤلاء الفتية اجتمعوا على الحق ، وربط الله على قلوبهم إذ قاموا للوقوف فى وجه الباطل ، وهداهم تفكيرهم السليم ! إلى أن المستحق للعبادة هو ربهم رب السموات والأرض ، وأن من يعبد غيره يكون قد افترى على الله كذبا . . .

وإن اعتزال الكفر . يوصل إلى نشر الرحمة ، والظفر بالسداد والتوفيق . ولذا تواصوا فيما بينهم بقولهم : . فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ، ويهىء لكم من أمركم مرفقا » .

٦ — بيان أن مباشرة الأسباب المشروعة لا تنافى التوكل على الله .

فهؤلاء الفتية عندما خرجوا من ديارهم ، أخذوا بعض النقود . وبعد بعثهم من رقادهم أرسلوا أحدهم إلى المدينة ليحضر لهم طعاما طاهرا حلالا ، وأوصوه بالتلطف فى أخذه وعطائه وبكتمان أمره وأمرهم حتى لا يعرف الأعداء مكانهم .

وهكذا العقلاء ، لا يمنعهم توكلهم على الله ـ تعالى ـ من أخذ الحيطة والحذر فى كل شئونهم التى تستدعى ذلك .

٧ — إقامة أوضح الأدلة وأعظمها على أن البعث حق . لقد أطلع الله ـ تعالى ـ الناس على هؤلاء الفتية ، ليوقنوا بأنه ـ سبحانه ـ قادر على إحياء الموتى . . . لأن من يقدر على بعث الراقدين من رقادهم بعد مئات السنين ، فهو قادر على إحياء الموتى يوم القيامة .

٨ — بيان أن من الواجب على المؤمن إذا أراد فعل شىء أن يقرن ذلك بمشيئة الله ـ تعالى ـ ، لأنه ـ سبحانه ـ بيده الأمر كله ، وصدق الله إذ يقول: « ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله » .

هذه بعض العظات والأحكام التي ترشدنا إليها هذه القصة . وقد ذكرنا جانبا آخر منها خلال تفسيرنا للآيات التي اشتملت عليها . ومن أراد المزيد فليرجع إلى ما كتبه المفسرون في ذلك(١) .

ثم أمر الله ـ تعالى ـ نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمداومة التلاوة لما أوحاه إليه ـ سبحانه ـ ، فإن فيه فصل الخطاب وبالحفاوة بالمؤمنين الصادقين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى ؛ وبإعلان كلمة الحق فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر فقال ـ تعالى ـ :

« واتْلُ ما أُوحِيَ إليكَ مِنْ كِتابِ ربِّكَ لا مبدِّلَ لِكلمَاتِه ، ولن تَجدَ مِنْ دُونِه مُلْتحداً (٢٧) واصْبِرْ نَفْسَكَ معَ الذينَ يدْعُونَ ربَّهم بالغَداةِ والعَشِيِّ يُرِيدُونَ وجْهَهُ ، ولا تَعْدُ عيناكَ عنهُم تريدُ زِينَةَ الحياةِ الدُّنيا، ولا تُطِعْ من أَغْفَلْنَا قَلْبهُ عَنْ ذِكْرِنَا واتَّبَع هَواهُ وكَانَ أَمرُهُ فُرُطاً (٢٨) وقُلِ الحَقُّ مِنْ ربِّكُم فَمَنْ شاء فلْيُؤمِنْ وَمَنْ شاء فَلْيَكْفُر ، إنَّا أَعْتَدْنَا للظَّالمِينَ نَارًا ، أحاطَ بِهِمْ سُرَادقُها ، وإن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِماءٍ كالمُهْلِ يشْوِي الوُجوهَ بئْسَ الشرابُ وساءتْ مُرْتفقاً (٢٩) إنَّ الذينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالحاتِ إنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ من أَحْسَنَ عملاً (٣٠) أولئكَ لهُمْ جنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تحتِهمُ الأنهارُ يحلَّونَ فيها من أساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ ، ويلبسُونَ ثِياباً خُضْراً من سُنْدُسٍ وإسْتَبْرقٍ ، متكئِينَ فيها على الأرائِك نِعْمَ الثوابُ وحَسُنَتْ مرتفقاً (٣١) » .

(١) راجع تفسير الفخر الرازى ج ٢١ ص ٨١ ، وتفسير القرطبى ج ١٠ ص ٣٥١ وتفسير الآلوسى ٩ ٣ ، وتفسير أضواء البيان ج ٤ ص ١٨ .

قال الإمام الرازي ماملخصه : قوله ـ تعالى ـ : « واتل ما أوحى إليك.. » اعلم أن من هذه الآية إلى قصة موسى ـ عليه السلام ـ والخضر ، كلام واحد في قصة واحدة. وذلك أن أكابر كفار قريش احتجوا وقالوا لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إن أردت أن نؤمن بك فاطرد هؤلاء الفقراء.. فنهاه الله عن طردهم لأنه مطلوب فاسد... ثم إنه ـ سبحانه ـ أمره بالمواظبة على تلاوة كتابه ، وأن لايلتفت إلى إقتراح المقترحين ، وتعنت المتعنتين... »[1] .

وقوله ـ سبحانه ـ : « واتل... » فعل أمر من التلاوة بمعنى القراءة .

أى : وعليك ـ أيها الرسول الكريم ـ أن تواظب وتداوم على قراءة ما أوحيناه إليك من هذا القرآن الكريم ، وأن تتبع إرشاداته وتوجيهاته ، فإن فى ذلك مايهديك إلى الطريق الحق ، ومايغنيك عن السؤال والاستفتاء ، قال ـ تعالى ـ : « إن الذين يتلون كتاب الله ، وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ، يرجون تجارة لن تبور »[2] .

وصيغة الأمر فى قوله ـ سبحانه ـ : « واتل.. » لإبقاء الفعل لا لإيجاده، كما فى قوله ـ تعالى ـ : « أهدنا الصراط المستقيم » .

و « من » فى قوله « من كتاب ربك » بيانية .

وقوله : « لا مبدل لكلماته » أى : ليس فى هذا الكون أحد فى إمكانه أن يغير أو يبدل شيئا من الكلمات التى أوحاه الله ـ تعالى ـ إليك ـ أيها الرسول الكريم ـ ، لأننا قد تكفلنا بحفظ هذا الكتاب الذى أوحيناه إليك.

قال ـ تعالى ـ : « وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم »[3] .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٢١ ص ١١٤

(٢) سورة فاطر الآية ٢٩ (٣) سورة الأنعام الآية ١١٥

وقال - سبحانه - ، « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »[١] .

فالجملة الكريمة وهى قوله - سبحانه - « لا مبدل لكلماته » نفت قدرة أحد على تبديل كلمات الله ، لأن أخبارها صدق ، وأحكامها عدل ، وإنما الذى يقدر على التغيير والتبديل هو الله - تعالى - وحده .

والضمير فى « كلماته » يعود على الله - تعالى - ، أو على الكتاب .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : « ولن تجد من دونه ملتحدا » .

وأصل الملتحد : مكان الالتحاد وهو افتعال من اللحد بمعنى الميل . ومنه اللحد فى القبر ، لأنه ميل فى الحفر . ومنه قوله - تعالى - : « إن الذين يلحدون فى آياتنا لا يخفون علينا . . . » أى : يميلون فى آياتنا .

فالمراد بالملتحد : المكان الذى يميل فيه إلى ملجأ المنجاة .

والمعنى : وداوم أيها الرسول الكريم على تلاوة ما أوحيناه إليك من كتابنا الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، واعلم أنك إن خالفت ذلك لن تجد غير الله - تعالى - ملجأ تلجأ إليه ، أو مأوى تأوى إليه ، لكى تنجو مما يريده بك .

فالجملة الكريمة تذييل قصد به التحذير الشديد - فى شخص الرسول - صلى الله عليه وسلم - لكل من يقصر فى تلاوة كتاب الله ، أو يحاول التبديل فى ألفاظه ومعانيه .

ثم ساقت السورة الكريمة لونا من الأدب السامى ، والتوجيه العالى ، حيث بينت أن أولى الناس بالرعاية والمجالسة هم المؤمنون الصادقون ، وأمرت النبى - صلى الله عليه وسلم - بأن يصبر نفسه معهم ، فقال - تعالى - : « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا . . . »

(١) سورة الحجر الآية ٩ .

وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايات منها : أنها نزلت فى أشراف قريش ، حين طلبوا من النبى – صلى الله عليه وسلم – أن يجلس معهم وحده ، ولا يجالسهم مع ضعفاء أصحابه كبلال وعمار وابن مسعود .. وليفرد أولئك بمجلس على حدة ، فنهاه الله – تعالى – عن ذلك .. وأمره أن يصبر نفسه فى الجلوس مع هؤلاء الفقراء فقال : « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ... »(١) .

وصبر النفس معناه : حبسها وتثبيتها على الشىء . يقال : صبرت فلانا أصبره صبرا ، أى : حبسته .

والغداة : أول النهار . والعشى ، آخره .

والمعنى : عليك – أيها الرسول الكريم – أن تحبس نفسك وتعودها على مجالسة أصحابك « الذين يدعون ربهم » أى : يعبدونه ويتقربون إليه بشتى أنواع القربات ، فى الصباح والمساء . ويداومون على ذلك ، دون أن يريدوا شيئا من وراء هذه العبادة ، سوى رضا الله – تعالى – عنهم ورحمته بهم .

وفى تخصيص الغداة والعشى بالذكر : إشعار بفضل العبادة فيهما : لأنهما محل الغفلة والاشتغال بالأمور الدنيوية غالبا .

ويصح أن يكون ذكر هذين الوقتين المقصود به مداومة العبادة ، وإلى هذا المعنى أشار الآلوسى بقوله : قوله : « يدعون ربهم بالغداة والعشى » أى : يعبدونه دائما . وشاع استعمال مثل هذه العبارة للدوام . وهى نظير قولهم : ضرب زيد الظهر والبطن . يريدون به ضرب جميع البدن . وأبقى غير واحد اللفظين على ظاهرهما أى : يعبدونه فى طرفى النهار . »(٢) .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ١٤٨ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ٢٦٢ .

وقوله : « يريدون وجهه » مدح لهم بالإخلاص والبعد عن الرياء والمباهاة . . . فهم لا يتقربون إلى الله - تعالى - بالطاعات من أجل دنيا يصيبونها . أو من أجل إرضاء الناس .

وإنما هم يبتغون بعبادتهم رضا الله - تعالى - وحده ، لا شيئا آخر من حظوظ الدنيا .

وقوله - سبحانه - : « ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا . . . » نهى له صلى الله عليه وسلم - عن الغفلة عنهم ، بعد أمره بحبس نفسه عليهم .

والفعل « تعد » بمعنى تصرف . يقال عداه عن الأمر عدوا إذا صرفه عنه وشغله .

أى : أحبس نفسك مع هؤلاء المؤمنين الصادقين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه - سبحانه - ، ولا تصرف عيناك النظر عنهم ، وتتجاوزهم إلى غيرهم من الأغنياء ، طمعا فى إسلامهم .

فالمراد بإرادة الحياة : الحرص على مجالسة أهل الغنى والجاه حبا فى إيمانهم .

وجملة « تريد زينة الحياة الدنيا » فى موضع الحال من الضمير المضاف إليه فى قوله « عيناك » ، وإنما ساغ ذلك لأن المضاف هنا جزء من المضاف إليه .

وقوله - تعالى - « ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا » نهى آخر مؤكد لما قبله من حبس نفسه - صلى الله عليه وسلم - على هؤلاء المؤمنين الفقراء ، وعدم صرف نظره عنهم إلى غيرهم من المتغطرسين الأغنياء .

والفرط - بضم الفاء والراء - : مجاوزة الحد ، ونبذ الحق والصواب ، واتباع الباطل والضلال .

أى : ولا تطع - أيها الرسول الكريم - فى تنحية المؤمنين الفقراء عن

مجلسك ، أقوال أولئك الغافلين عن طاعتنا وعبادتنا لاستحواذ الشيطان عليها ، والذين اتبعوا أهواءهم فآثروا الضلال على الرشد ، والذين كان أمرهم «فرطا» أى : مخالفا للحق ، ومجاوزا للصواب ، ومؤديا للضياع والخسران .

قال ابن جرير - بعد أن ذكر جملة من الأقوال فى معنى قوله - تعالى - : «فرطا» : وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب : قول من قال معناه : ضياعا وهلاكا . من قولهم : أفرط فلان فى هذا الأمر إفراطا ، إذا أسرف فيه ، وتجاوز قدره . وكذلك قوله : «وكان أمره فرطا» .

معناه : وكان أمر هذا الذى أغفلنا قلبه عن ذكرنا فى الرياء والكبر واحتقار أهل الإيمان سرفا قد تجاوز حده ، فضيع بذلك الحق وهلك»[1] .

فالآية الكريمة تسوق للناس توجيها حكيما فى بيان القيم الحقيقية للناس ، وهى أنها تتمثل فى الإيمان والتقوى ، لا فى الغنى والجاه . . .

فالمؤمن الصادق فى إيمانه ، الكريم فى أخلاقه . . . هو الذى يحرص على مخالطة أهل الإيمان والتقوى . ولا يمنعه فقرهم من مجالستهم ومصاحبتهم ومؤانستهم والتواضع لهم ، والتقدم إليهم بما يسرهم ويشرح صدورهم . . .

ولقد ربى النبى - صلى الله عليه وسلم - أصحابه على هذا الخلق الكريم ، روى الشيخان عن سهل بن سعد الساعدى قال : مر رجل على النبى - صلى الله عليه وسلم - فقال لرجل عنده جالس : «ما رأيك فى هذا» ؟ فقال : رجل من أشرف الناس ، هذا والله حرى إن خطب أن يزوج ، وإن شفع أن يشفع . فسكت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، فقال له - صلى الله عليه وسلم - : «ما رأيك فى هذا» ؟ فقال : يا رسول الله ، هذا رجل من فقراء المسلمين هذا والله حرى إن خطب لا يزوج وإن شفع أن لا يشفع ، وإن قال أن لا يسمع لقوله . فقال

---

(١) تفسير ابن جرير ج ١٥ ص ١٥٦ .

رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « هذا خير من ملء الأرض من مثل هذا »[١] .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يجهر بكلمة الحق في وجوه المستكبرين ، فقال . « وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ... »

أى : وقل : أيها الرسول - لهؤلاء الذين أغفلنا قلوبهم عن ذكرنا ، واتبعوا أهواءهم ، وكان أمرهم فرطا ، قل لهم : هذا الذى جئتكم به من قرآن هو الحق من ربكم وخالقكم ...

فقوله : الحق من ربكم ، خبر لمبتدأ محذوف .

أو أن لفظ « الحق » مبتدأ ، والجار والمجرور خبره . أى : الحق الذى جئتكم به فى هذا القرآن العظيم ، كائن مبدؤه من ربكم ، وليس من أحد سـواه .

وليس المراد من قوله « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » التخيير بين الايمان والكفر ، بل المراد به التهديد والتخويف ، بدليل قوله - تعالى - بعد ذلك « إنا أعتدنا للظالمين نارا »... الخ

أى : قل لهم جئتكم من ربكم بالحق الذى يجب إتباعه ، فمن شاء أن يؤمن به فليفعل فإن عاقبته الخير والثواب ، ومن شاء أن يكفر به فليكفر فإن عاقبته الخسران والعقاب ، كما بين - سبحانه - ذلك فى قوله :

« إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها » . . .

والسرادق : كل ما أحاط بغيره ، كالحائط أو السور الذى يحيط بالبناء ، فيمنع من الوصول إلى ما بداخله .

---

(١) رياض الصالحين للامام النووى ص ١٣١ باب فضل ضعفة المسلمين .

أي : إنا هيأنا وأعددنا للكافرين بهذا الحق نارا مهولة عظيمة ، أحاط بهم سياجها إحاطة تامة ، بحيث لا يستطيعون الخروج منه ، وإنما هم محصورون بداخله . كما ينحصر الشيء بداخل ما يحدق به من كل جانب .

وقوله : « وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه ، بئس الشراب، وساءت مرتفقا ، بيان لما ينزل بهم من عذاب عندما يطلبون الغوث عما هم فيه من كروب .

والمهل في اللغة : يطلق على ما أذيب من جواهر الأرض ، كالحديد ، والرصاص ، والنحاس ، ونحو ذلك كما يطلق ـ أيضا ـ على الماء الغليظ كدردي الزيت أي : ما تعكر منه . وقيل . هو نوع من القطران أو السم .

والمرتفق : المتكأ ، من الارتفاق وهو الاتكاء على مرفق اليد .

أي : أن هؤلاء الكافرين ، إن يطلبوا الغوث عما هم فيه من كرب وعطش ، يغاثوا بماء كالمهل في شدة حرارته ونتنه وسواده « هذا الماء « يشوي الوجوه» أي : يحرقها . . .

« بئس الشراب » ذلك الماء الذي يغاثون به «وساءت» النار منزلا ينزلون به ، ومتكأ يتكئون عليه .

فالآية الكريمة تصور ما ينزل بهؤلاء الظالمين من عذاب ، تصويرا ترتجف من هوله الأبدان ، ويدخل الرعب والفزع على النفوس .

قال بعضهم : فإن قيل ، أي إغاثة لهم في ماء كالمهل مع أنه من أشد العذاب ، وكيف قال ـ سبحانه ـ ، « يغاثوا بماء كالمهل ؟

فالجواب ، أن هذا من أساليب اللغة العربية التي نزل بها القرآن ونظيره من كلام العرب قول عمرو بن معد يكرب

وخيل قد دلفت لها بخيل تحية بينهم ضرب وجيع

أي : لا نجدة لهم إلا الضرب الوجيع وإذا كان هؤلاء الظالمون لا يغاثون إلا بماء كالمهل : علم من ذلك أنهم لا إغاثة لهم مطلقا »[١] .

والمخصوص بالذم فى قوله : « بئس الشراب وساءت مرتفقا » محذوف ، بئس الشراب ذلك الماء الذى يغاثون به ، وساءت النار مكانا للارتفاق والاتكاء .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك حسن عاقبة المؤمنين فقال : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا » .

أى : إن الذين آمنوا إيمانا حقا ، وقدموا فى دنياهم الأعمال الصالحات ، اقتضت سنتنا التى لا تتغير ولا تتبدل أن نرضى عنهم ، وأن ندخلهم مدخلا كريما ، لأننا لا نضيع أجر من أحسن عملا .

ثم بين - سبحانه - ما أعده لهؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات من ألوان النعيم فقال : « أولئك لهم جنات عدن تجرى من تحتهم الأنهار » .

ولفظ « عدن » بمعنى إقامة لا رحيل بعدها ولا تحول . وأصله من عدن فلان بالمكان ، إذ أقام به واستقر فيه .

أى : أولئك الذين عمروا دنياهم بالايمان والعمل الصالح لهم جنات يقيمون فيها إقامة دائمة ، تجرى من تحت مساكنهم الأنهار .

« يحلون فيها من أساور من ذهب » والأساور : جمع سوار . وهو نوع من الحلى يلبس بزند اليد .

أى : يلبسون فى تلك الجنات أساور من ذهب على سبيل التزين والتكريم

ولا مانع من أن يضاف إلى هذه الأساور الذهبية ، أساور أخرى من فضة ، وثالثة من لؤلؤ كما فى قوله - تعالى - : « وحلوا أساور من فضة »[٢] .

---

(١) تفسير أضواء البيان حـ ٤ ص ٩٦

(٢) سورة الدهر الآية ٢١

وقوله ـ سبحانه ـ : «يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا . . »[1].

وفى الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : «تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء » .

وقوله « ويلبسون ثيابا خضرا من سندس وإستبرق » معطوف على ماقبله.

والسندس : مارق من الحرير واحده سندسة .

والاستبرق : ما غلظ منه وثخن ، واحده استبرقة .

أي : يتزينون فى الجنات بأساور من ذهب ، ويلبسون فيها ثيابا خضرا من رقيق الحرير ومن غليظه .

ثم ختم ـ سبحانه ـ الآية بقوله : متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب وحسنت مرتفقا » .

والأرائك : جمع أريكة . وهو كل ما يتكأ عليه من سرير أو فراش ، أي : متكئين فى الجنات على الأرائك شأن المتنعمين المترفين «نعم الثواب» ذلك الذى وعدهم الله ـ تعالى ـ به وهو الجنة « وحسنت » تلك الأرائك فى الجنات « مرتفقا » .

أي : متكأ ومقرا ومجلسا ومسكنا .

وبذلك نرى الآية الكريمة قد اشتملت على ألوان متعددة من التكريم والثواب لأولئك المؤمنين الذين عمروا دنياهم بالعمل الصالح .

فقد بشرهم ـ سبحانه ـ بجنات عدن ، ثم بشرهم ثانيا بأن الأنهار تجرى من تحتهم ثم بشرهم ثالثا بأنهم يحلون فيها من أساور من ذهب ، ثم بشرهم رابعا بأنهم يلبسون ثيابا خضراً من سندس وإستبرق ، ثم بشرهم خامسا ، بأنهم يتكئون فى تلك الجنات على الأرائك .

---

(١) سورة الحج الآية ٢٣

وفى هذه البشارات ما فيها من الحض على المسارعة إلى العمل الصالح ، الذى يرفع درجات المؤمن إلى أعلى عليين ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم ، نسأل الله - تعالى - أن يرزقنا هذا الفضل ، فهو أكرم مسئول ، وأعظم مأمول .

ثم ساقت السورة الكريمة مثلا للنفس الإنسانية المغرورة المتفاخرة بزينة الحياة الدنيا ، الجاحدة لنعم الله ... وللنفس الإنسانية المتواضعة ، المعتزة بعقيدتها السليمة ، الشاكرة لربها ... لكى يكون فى هذا المثل عبرة وعظة لمن كان له قلب ، فقال - تعالى - :

« واضرِبْ لهُم مثلاً رجُلَين وجَعلنا لأحَدِهما جنَّتَين من أعنَابٍ ، وحَفَفْناهُما بنَخْلٍ وجَعلْنا بينَهمَا زَرْعاً (٣٢) كلتا الجَنَّتَين آتَتْ أُكلَها ولم تظلِمْ منهُ شيئاً وفجَّرنا خِلاَلهُما نهراً (٣٣) وكانَ لهُ ثَمَر ، فقالَ لِصَاحِبِه وهُو يحاوِرُهُ أنا أكثَرُ منْكَ مالاً وأعزُّ نَفَراً (٣٤) ودخلَ جنَّتَهُ وهُو ظالِمٌ لنفسِه قالَ ما أَظنُّ أنْ تبِيد هذه أبداً (٣٥) وما أَظنُّ الساعةَ قائمةَ ، ولئنْ رُدِدْتُ إلى ربِّى لأجِدَنَّ خيراً منها مُنْقلبا (٣٦) ».

والمثل فى اللغة : الشبيه والنظير ، وهو فى عرف القرآن الكريم : الكلام البليغ المشتمل على تشبيه بديع .

وضرب المثل : إيراده ، وعبر عن إيراده بالضرب ، لشدة مايحدث عنه من التأثير فى نفس السامع .

أى : واضرب - أيها الرسول الكريم - مثلا للمؤمنين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، وللكافرين الذين غرتهم الحياة الدنيا ، ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حى عن بينة .

قال الآلوسى : والمراد بالرجلين : إما رجلان مقدران على ما قيل وضرب المثل لا يقتضى وجودهما . وإما رجلان موجودان وهو المعول عليه . فقيل هما رجلان من بنى إسرائيل أحدهما كافر ... والآخر مؤمن .

ثم قال : والمراد ضربهما مثلا للفريقين المؤمنين والكافرين ، لا من حيث أحوالهما المستفادة مما ذكر آنفا ، من أن المؤمنين فى الآخرة كذا ، وللكافرين فيها كذا ، من حيث عصيان الكفرة مع تقلبهم فى نعم الله ، وطاعة المؤمنين مع مكابدتهم مشاق الفقر »[1] .

أى : واضرب لهم مثلا من حيثية العصيان مع النعمة ، والطاعة مع الفقر ، حال رجلين : « جعلنا لأحدهما ، وهو الكافر « جنتين » أى : بستانين ، ولم يعين - سبحانه - مكانهما ، لأنه لم يتعلق بهذا التعيين غرض .

ثم بين ما اشتملت عليه هاتان الجنتان من خيرات فقال : « من أعناب » جمع عقب ، والعنبة الحبة منه . والمراد : من كروم متنوعة .

وقوله : « وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا » بيان لما أضيف إلى الجنتين من مناظر تزيدهما بهجة وفائدة .

والحف بالشيء : الإحاطة به . يقال : فلان حفه القوم ، أى : أحاطوا به ، ومنه قوله - تعالى - : « وترى الملائكة حافين من حول العرش . . . »

أى : جعلنا لأحد الرجلين ، وهو الكافر منهما جنتين من أعناب ، وأحطناهما بنخل ليكون كالحماية النافعة لهما ، وجعلنا فى وسطهما زرعا وبذلك تكون الجنتان جامعتين للأقوات والفواكه ، مشتملين على ما من شأنه أن يشرح الصدر ، ويفيد الناس .

ثم ذكر - سبحانه - ما يزيد من جودة الجنتين . ومن غزارة خيرهما فقال : « كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً ، وفجرنا خلالهما نهرا » .

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٥ ص ٢٧٣ .

أى : أن كل واحدة من الجنتين « آتت أكلها » أى : أعطت ثمارها التى يأكلها الناس من العنب والتمر وغيرهما من صنوف الزرع « ولم تظلم منه شيئا » ولم تنقص من هذا المأكول شيئا فى سائر السنين ، بل كان أكل كل واحدة منهما وافيا كثيرا فى كل سنة ، على خلاف ماجرت به عادة البساتين ، فإنها فى الغالب تكثر ثمارها فى أحد الأعوام وتقل فى عام آخر .

وفى التعبير بكلمة « تظلم » بمعنى تنقص وتمنع ، مقابلة بديعة لحال صاحبهما الذى ظلم نفسه بجحوده لنعم الله ـ تعالى ـ وإستكباره فى الأرض .

فأنت ترى أن الله ـ تعالى ـ قد وصف هاتين الجنتين بما يدل على جمال منظرهما ، وغزارة عطائهما ، وكثرة خيراتهما ، وإشتمالهما على مايزيدهما بهجة ومنفعة . .

ثم بين ـ سبحانه ـ أن صاحب هاتين الجنتين كانت له أموال أخرى غيرهما فقال : « وكان له ثمر . . » .

قال الآلوسى ما ملخصه : « وكان له » أى : للأحد المذكور وهو صاحب الجنتين « ثمر » أى أنواع أخرى من المال . . . وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائى . . . . « ثُمُر » بضم الثاء والميم . « وهو جمع ثمار ـ بكسر الثاء ـ . . . أى : أموال كثيرة من الذهب والفضة والحيوان وغير ذلك ، وبذلك فسره ابن عباس وقتادة وغيرهما . . . »[1]

وقوله ـ سبحانه ـ : « فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا » حكاية لما تفوه به هذا الكافر من ألفاظ تدل على غروره وبطره .

والمحاورة : المراجعة للكلام من جانبين أو أكثر . يقال : تحاور القوم ،

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٥ ص ٢٧٤ .

إذا تراجعوا الكلام فيما بينهم . ويقال : كلمته فما أحار إلى جــوابا ، أى : مارد جوابا . . .

والنفر : من ينفر - بضم الفـاء - مع الرجل من قومه وعشيرته لقتـال عدوه .

أى : فقال صاحب الجنتين لصاحبه المؤمن الشاكر : أنا أكثر منك مالا وأعز منك عشيرة وحشما وأعوانا .

وهذا شأن المطموسين المغرورين ، تزيدهم شهوات الدنيا وزينتها . . . بطرا وفسادا فى الأرض . .

وما أصدق قول قتادة - رضى الله عنه - : « تلك - والله - أمنية الفاجر : كثرة المال وعزة النفر ، ثم إنتقل صاحب الجنتين من غروره هذا إلى غرور أشد ، حكاه القرآن فى قوله : « ودخل جنته وهو ظالم لنفسه ، قال : ما أظن أن تبيد هذه أبدا . وما أظن الساعة ، قائمة ، ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيرا منها منقلبا » .

أى : أن هذا الكافر لم يكتف بتطاوله على صاحبه المؤمن ، بل سار به نحو جنته حتى دخلها وهو ظالم لنفسه بسبب كفره وجحوده وغروره .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : فلم أفرد الجنة بعد التثنية ؟ قلت : معناه ودخل ما هو جنته ، ماله جنة غيرها : يعنى أنه لانصيب له فى الجنة التى وعدها الله للمؤمنين ، فما ملكه فى الدنيا هو جنته لاغير ، ولم يقصد الجنتين ولا واحدة منهما .

وقوله « وهو ظالم لنفسه » أى : وهو معجب بما أوتى مفتخر به ، كافر لنعمة ربه ، معرض بذلك نفسه لسخط الله ، وهو أفحش الظلم . . » (١) .

---

(١) تفسير الكشاف جـ٢ ص ٤٨٤ .

وقوله : « قال ماأظن أن تبيد هذه أبداً » أى : قال هذا الكافر لصاحبه: ما أظن أن هذه الجنة تفنى أو تهلك أبدا .

يقال : باد الشىء يبيد بيدا وبيودا ، إذا هلك وفنى .

ثم ختم هذا الكافر محاورته لصاحبه بقوله : « وما أظن الساعة قائمة » أى : كائنة ومتحققة . فهو قد أنكر البعث وما يترتب عليه من حساب بعد إنكاره لفناء جنته ثم أكد كلامه بجملة قسمية فقال : « ولئن رددت إلى ربى » أى : والله لئن رددت إلى ربى على سبيل الفرض والتقدير كما أخبرتنى ياصاحبى بأن هناك بعثا وحسابا « لأجدن خيرا منها » أى : من هذه الجنة « منقلبا » أى : مرجعاً وعاقبة . اسم مكان من الإنقلاب بمعنى الرجوع والانصراف عن الشىء إلى غيره .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : « أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا » .

وقوله - سبحانه - : « وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين » .

والمتدبر لحال صاحب الجنتين يراه ، - أولا - قد زعم أن مدار التفاضل هو الثروة والعشيرة ، ويراه - ثانيا - قد بنى حياته على الغرور والبطر ، وإعتقاد الخلود لزينة الحياة الدنيا . ويراه - ثالثاً - قد أنكر البعث والحساب ، والثواب والعقاب .

ويراه - رابعا - قد توهم أن غناه فى الدنيا سيكون معه مثله فى الآخرة :

قال صاحب الكشاف : وأخبر عن نفسه بالشك فى بيدودة جنته ، لطول أمله ، واستيلاء الحرص عليه ، وتمادى غفلته ، وإغتراره بالمهلة ، وإطراحه النظر فى عواقب أمثاله ، وترى أكثر الأغنياء من المسلمين ، وإن لم يطلقوا بمثل هذا ألسنتهم ، فإن ألسنة أحوالهم ناطقة به ، منادية عليه .

وأقسم على أنه إن رد إلى ربه - على سبيل الفرض والتقدير - ليجدن فى الآخرة خيراً من جنته فى الدنيا ، تطمعا وتمنيا على الله .. »[١] .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ماقاله الرجل المؤمن لصاحب الجنتين ، الذى نطق بالفحش ، وأفجر الفجور ، فقال - تعالى - :

« قالَ لهُ صاحِبُه وهو يُحاوِرُهُ أكفَرْتَ بالذى خلقَكَ مِن تُرابٍ ، ثم مِنْ نُطفَةٍ ثم سوّاكَ رَجُلا (٣٧) لكِنَّا هو اللهُ ربى ولاَ أُشرِكُ بِرَبِى أحداً (٣٨) ولولاَ إذ دخلتَ جنَّتَكَ قُلتَ ما شاء اللهُ لا قُوَّةَ إلا باللهِ ، إن تَرَنِ أنا أَقلَّ مِنكَ مالاً وولداً (٣٩) فعسَى ربى أنْ يؤتيَنِ خيراً من جنَّتِك ويُرسِلَ علَيها حُسْباناً من السَّماء فتُصْبِحَ صعِيداً زلَقاً (٤٠) أو يُصْبِحَ ماؤُها غَوْرًا فلَن تَستَطِيعَ لهُ طلَباً (٤١) » .

أى : قال الرجل الفقير المؤمن ، فى رده على صاحبه الجاحد المغرور ، منكرا عليه كفره قال له على سبيل المحاورة والمجاوبة : ياهذا وأكفرت ، بالله الذى « خلقك » بقدرته « من تراب » .

أى : خلق أباك الأول من تراب ، كما قال : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم ، خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون »[٢] .

« ثم من نطفة » أى : خلق أباك آدم من تراب ، ثم أوجدك أنت من نطفة عن طريق التناسل والمباشرة بين الذكر والأنثى .

« ثم سواك رجلا » أى : ثم صيرك إنسانا كاملا « ذا صورة جميلة ، وهيئة حسنة . كما قال - سبحانه - : « لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم » .

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٤٨٤ .
(٢) سورة آل عمران الآية ٥٨

والاستفهام في قوله : «أكفرت . . . » الإنكار والاستبعاد ، لأن خلق الله - تعالى - له من تراب ثم من نطفة ، ثم تسويته إياه رجلا ، يقتضى منه الإيمان بهذا الخالق العظيم ، وإخلاص العبادة له ، وشكره على نعمائه .

قالوا : ولا يستلزم قول صاحب الجنتين قبل ذلك : «ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيرا منها منقلبا» .

إنه كان مؤمنا ، لأنه قال ذلك على سبيل الفرض والتقدير ، لا على سبيل الاعتقاد واليقين ، بدليل تردده فى إمكان قيام الساعة ، ولأن اعترافه بوجود الله - تعالى - لا يستلزم الإيمان الحق ، فالكفار كانوا يعترفون بأن الله - تعالى - هو الخالق للسموات والأرض ، ومع هذا يشركون معه فى العبادة آلهة أخرى .

وجاء التعبير بحرف «ثم» فى الآية ، للاشارة إلى أطوار خلق الإنسان التى فصلها - سبحانه - فى آيات أخرى ، منها قوله - تعالى - : «ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقه ، فخلقنا العلقه مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين» [1] .

ثم يعلن الرجل الصالح موقفه بشجاعة ووضوح ، فيقول لصاحبه صاحب الجنتين : «لكنا هو الله ربى ، ولا أشرك بربى أحدا» .

أى : إن كنت أنت يا هذا قد كفرت بالله الذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا ، فإنى لست بكافر ، ولكنى أنا مؤمن ، اعترف له بالعبادة والطاعة وأقول : هو الله - تعالى - وحده ربى ، ولا أشرك معه أحدا من خلقه لا فى الربوبية ، ولا فى الألوهية ، ولا فى الذات ولا فى الصفات .

(١) سورة المؤمنون الآيات من ١٣ - ١٤

وقوله ـ سبحانه ـ فى هذه الآية « لكنا ... » أصله : « لكن أنا » أى : لكن أنا أقول هو الله ربى . فحذفت همزة « أنا » وأدغمت نون « لكن » فى نون « نا » بعد حذف الهمزة .

وجمهور القراء يقرءون فى الوصل « لكن » بدون ألف بعد النون المشددة وقرأ أبو عامر فى الوصل « لكنا » بالألف . أما فى حالة الوقف فقد إتفق الجميع على إثبات الألف .

قال صاحب الكشاف : قوله : « لكنا هو الله ربى » أصله : لكن أنا ، فحذفت الهمزة ، وألقيت حركتها على نون لكن ، فتلاقت النونان فكان الإدغام ونحوه قول القائل :

وترميننى بالطرف أى أنت مذنب   وتقليننى ، لكن إياك لا أقلى

أى : لكن أنا لا أقليك .

و « هو » ضمير الشأن : أى : والشأن أن الله ربى : والجملة خبر أنا . والراجع منها إليه ياء الضمير .

فإن قلت : هو إستدراك لماذا ؟ قلت : لقوله « أكفرت ... » قال لأخيه أنت كافر بالله ، لكنى مؤمن موحد ، كما تقول : زيد غائب لكن عمرا حاضر »[1]

ثم أرشده إلى ما كان يجب عليه أن يقوله عند دخوله جنته فقال : « ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله . . . . » .

قال الامام ابن كثير : هذا تحضيض وحث على ذلك . أى : هلا إذ أعجبتك جنتك حين دخلتها ونظرت إليها ، حمدت الله على ما أنعم به عليك وأعطاك من المال والولد ما لم يعط غيرك وقلت « ماشاء الله لاقوة إلا بالله » ، ولهذا قال بعض السلف : من أعجبه شىء من حاله أو ولده أو ماله ، فليقل : ما شاء

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٤٨٥ .

الله لا قوة إلا بالله . . وهذا مأخوذ من هذه الآية الكريمة. وقد روى فيه حديث مرفوع . . . فعن أنس - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما أنعم الله على عبد نعمة من أهل أو مال أو ولد فيقول : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، فيرى فيه آفة دون الموت[١] .

وقال الآلوسى : وقوله : « ما شاء الله ، أى : الأمر ما شاء الله ، أو ما شاء الله - تعالى - كائن ، على أن « ما » موصولة مرفوعة المحل . إما على أنها خبر مبتدأ محذوف . أو على أنها مبتدأ محذوف الخبر . . . وأيا كان فالمراد تحضيضه على الاعتراف بأن جنته وما فيها بمشيئة الله - تعالى - إن شاء أبقاها وإن شاء أبادها »[٢] .

وبعد أن حضه على الشكر لله - تعالى - . رد على افتخاره وغروره بقوله - كما حكى القرآن عنه - : « إن ترن أنا أقل منك مالا وولداً . فعسى ربى أن يؤتين خيراً من جنتك .

أى : إن ترنى - أيها المغرور - أنا أقل منك فى المال والولد، فإنى أرجو الله الذى لا يعجزه شيء ، أن يرزقنى ما هو خير من جنتك فى الدنيا والآخرة .

« ويرسل عليها حسباناً من السماء » أى : عذابا من جهة السماء كالصواعق والسموم وغيرها مما يشاء الله - تعالى - إرساله عليها من المهلكات التى تذرها قاعا صفصفا .

قال صاحب الكشاف : والحسبان مصدر كالغفران والبطلان بمعنى الحساب. أى : ويرسل عليها مقدارا قدره الله وحسبه، وهو الحكم بتخريبها، « فتصبح » بعد اخضرارها ونضارتها « صعيدا » أى : أرضا « زلقا» أى : جرداء ملساء لا نبات فيها ، ولا يثبت عليها قدم .

(١) تفسير ابن كثير جـ٥ ص ١٥٤ .

(٢) تفسير الآلوسى ، جـ ١٥ ص ٢٧٩ .

والمراد أنها تصير عديمة النفع من كل شيء حتى من المشى عليها . يقال : مكان زلق ، أى : دحض ، وهو فى الأصل مصدر زلقت رجله تزلق زلقا ، ومعناه : الزلل فى المشى لوحل ونحوه .

« أو يصبح ماؤها غورا » أى : غائراً ذاهبا فى الأرض . فالغور مصدر وصف به على سبيل المبالغه وهو بمعنى الفاعل . يقال : غار الماء يغور غورا : أى : سفل فى الارض وذهب فيها .

ومنه قوله ـ تعالى ـ : « قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا ، فمن يأتيكم بماء معين » .

« فلن تستطيع له طلبا » أى : فلن تستطيع أن تحصل عليه أو تطلبه بأية حيلة من الحيل. لأنه لا يقدر على الاتيان بهذا الماء الغائر إلا الله ـ عزوجل ـ .

وإلى هنا نجد أن الرجل المؤمن قد رد على صاحبه الكافر ، بما يذكره بعقيدته ، وبما يرجهه إلى الأدب الذى يجب أن يتحلى به مع خالقه ورازقه ، وبما يحذره من سوء عاقبة بطره .

وهكذا الإيمان الحق ، يجعل المؤمن يعتز بعقيدته ، ويتجه إلى الله وحده الذى تعنو له الجباه ، ويرجو منه وحده ما هو خير من بساتين الدنيا وزينتها.

ثم يختتم ـ سبحانه ـ هذه القصه ببيان العاقبه السيئة التى حلت بذلك الرجل الجاحد المغرور صاحب الجنتين فيقول .

« وَأُحِيطَ بِثَمَرِه ، فأصبَح يُقَلِّبُ كفَّيْه عَلَى ما أنفَقَ فيهاَ وهى خَاوِيةٌ على عُروشِها ، ويقولُ يا ليْتَنِي لم أشْرِكْ بربِّى أحداً (٤٢) ولم تكُن لهُ فِئـةٌ ينصرونَه من دونِ اللهِ وما كانَ مُنتصِراً (٤٣) هنالكَ الولَايةُ للهِ الحقِّ خيرٌ ثوابًا وخيرٌ عُقبًا (٤٤) » .

وقوله - سبحانه - : « وأحيط بثمره » معطوف على مقدر محذوف لدلالة السياق والسباق عليه .

وأصل الإحاطة مأخوذة من إحاطة العدو بعدوه من جميع جوانبه لإهلاكه واستئصاله .

والمعنى : فحدث ما توقعه الرجل الصالح من إرسال الحسبان على بستان صاحبه الجاحد المغرور ، وأحيط بثمره بأن هلكت أمواله وثماره كلها .

وجاء الفعل « أحيط » مبنيا للمجهول ، للإشعار بأن فاعله متيقن وهو العذاب الذي أرسله الله - تعالى - أي : وأحاط العذاب بجنته .

وقوله : « فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها » ، تصوير بديع لما إعتراه من غم وهم وحسرة وندامة . وتقليب اليدين عبارة عن ضرب إحداهما على الأخرى ، أو يبدي ظهرهما ثم بطنهما ويفعل ذلك مرارا ، وأياما كان ففعله هذا كناية عن الحسرة الشديدة ، والندم العظيم .

أي : وكانت نتيجة جحود صاحب الجنتين لنعم ربه ، أن أهلكت أمواله وأبيدت كلها . فصار يقلب كفيه ظهرا لبطن أسفا وندما ، على ما أنفق في عمارتها وتزيينها من أموال كثيرة ضاعت هباء ، ومن جهد كبير ذهب سدى .

« وهي » أي الجنة التي أنفق فيها ما أنفق « خاوية على عروشها » أي : ساقطة ومتهدمة على دعائمها وعلى سقوفها .

وأصل الخواء السقوط والتهدم . يقال : خوى البيت إذا سقط . كما يطلق على الخلاء من الشيء . يقال : خوى بطن فلان من الطعام أي : خلا منه ، وخوت الدار إذا خلت من سكانها .

والعروش جمع عرش ، وهو سقف البيت .

والمقصود أن الجنة بجميع ما إشتملت عليه ، صارت حطاما وهشيما تذروه الرياح ،

وجملة : «ويقول ياليتنى لم أشرك بربى أحـــدا» معطوفة على جملة «يقلب كفيه ..»

أى : صار يقلب كفيه حسرة وندامة لهلاك جنته ويقول زيادة فى الحسرة والندامة : يا ليتنى إتبعت نصيحة صاحبى فلم أشرك مع ربى - سبحانه - أحدا فى العبادة أو الطاعة .

وهكذا حال أكثر الناس ، يذكرون الله - تعالى - عند الشدائد والمحن ، وينسونه عند السراء والعافية .

والمتدبر لهذه الآية الكريمة يراها قد صورت لحيرة الرجل الجاحد فى جنته تصويرا واقعيا بديعا .

فقد جرت عادة الإنسان أنه إذا نزل به مايدهشه ويؤلمه .. أن يعجز عن النطق فى أول وهله . وإذا ما أفاق من دهشته بدأ فى النطق والكلام .

وهذا ما حدث من ذلك الرجل - كما صوره القرآن الكريم - فإنه عند ما رأى جنته وقد تحطمت أخذ يقلب كفيه حسرة وندامة دون أن ينطق ، ثم بعد أن أفاق من صدمته جعل يقول : ياليتنى لم أشرك بربى أحدا .

فياله من تصوير بديع ، يدل على أن هذا القرآن من عنـد الله - تعالى -

ثم ختم - سبحانه - هذه القصة ببيان عظيم قدرته ونفاذ إرادته فقال :

«ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا هنالك الولاية لله الحق ، هو خير ثوابا وخير عقبا» .

أى : ولم تكن لهذا الجاحد المغرور بعد أن خوت جنته على عروشها ، عشيرة أو أعوان ينصرونه ، أو يدفعون عنه ما حل به ، وإنما القادر على ذلك هو الله - تعالى - وحده وما كان هذا الرجل الذى جحد نعم ربه منتصرا لأنه - سبحانه - قد حجب عنه كل وسيلة تؤدى إلى نصره وعونه ، بسبب إيثاره الغى على الرشد ، والكفر على الإيمان .

فالآية الكريمة تبين بجلاء ووضوح ، عجز كل قوة عن نصرة ذلك الرجل المخذول سوى قوة الله - عز وجل - ، وعجز ذلك الرجل فى نفسه عن رد إنتقام الله - تعالى - منه .

وقوله - سبحانه - : « هنالك الولاية لله الحق . . . » تقرير وتأكيد للآية السابقة . ولفظ هنالك ظرف مكان .

وكلمة « الولاية » قرأها الجمهور بفتح الواو ، بمعنى الموالاة والصلة والنصره كما قرأ الجمهور كلمة « الحق » بالجر على أنها نعت للفظ الجلالة .

فيكون المعنى : فى ذلك المقام وتلك الحال تكون الولاية - أى الموالاة والصلة - من كل الناس ، لله - تعالى - وحده إذ الكافر عند ما يرى العذاب يعترف بوحدانية الله - تعالى - كما قال - سبحانه - « فلما رأو بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين . فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا . » [1]

ويجوز أن يكون المعنى : فى ذلك المقام وتلك الحال تكون الولاية أى الموالاة لله - تعالى - وحده ، فيوالى المؤمنين برحمته ومغفرته وينصرهم على أعدائهم ، كما قال - سبحانه - « ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا ، وأن الكافرين لا مولى لهم » [2]

وقرأ حمزة والكسائى : « الولاية » بكسر الواو ، بمعنى الملك والسلطان كما قرأ أبو عمرو والكسائى لفظ « الحق » بالرفع على أنه نعت للولاية

فيكون المعنى : فى ذلك المقام تكون الولاية الحق ، والسلطان الحق ، لله رب العالمين ، كما قال - سبحانه - : الملك يومئذ الحق للرحمن ، وكان يوما على الكافرين عسيرا » [3]

(١) سورة غافر الآيتان ٨٤ ، ٨٥ .
(٢) سورة محمد الآية ١١
(٣) سورة الفرقان الآية ٢٦

قال بعض العلماء : وقوله « هنالك » يرى بعضهم أنه متعلق بما بعده ، والوقف تام على قوله « وما كان منتصرا » .

ويرى آخرون أنه متعلق بما قبله .

فعلى القول الأول يكون الظرف « هنالك » عامله ما بعده . أى : الولاية كائنة لله هنالك .

وعلى القول الثانى فالعامل فى الظرف إسم الفاعل الذى هو « منتصرا » . أى : لم يكن إنتصاره واقعا هنالك (١)

وقوله - سبحانه - : « هو خير ثوابا وخير عقبا » أى : هو - عز وجل - خير إثابة وإعطاء لأوليائه ، وخير عاقبة « لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم إهتدى » .

وعاقبة الأمر : آخره وما يصير إليه منها . و « ثوابا . و « عقبا » منصوبان على التمييز ، بعد صيغة التفضيل « خير » التى حذفت منها الهمزة تخفيفا لكثرة الاستعمال كما قال ابن مالك - رحمه الله - :

وغالبا أغناهم خير وشر عن قولهم أخير منه وأشر

وبذلك نرى أن هذه القصة التى ضربها - تعالى - مثلا للأخيار والأشرار قد بينت لنا بأسلوب بليغ أخاذ ، صور عاقبة الجاحدين المغرورين ، وحسن عاقبة الشاكرين المتواضعين ، كما بينت لنا الآثار الطيبة التى تترتب على الايمان والعمل الصالح ، والآثار السيئة التى يفضى إليها الكفر وسوء العمل كما بينت لنا المتفرد بالولاية والقدرة هو الله - عز وجل - ، فلا قوة إلا قوته ، ولا نصر إلا نصره ، ولا مستحق للعبادة أحد سواه ، ولا ثواب أفضل من ثوابه ولا عاقبة لأوليائه خير من العاقبة التى يقدرها لهم ، وصدق - سبحانه - حيث يقول : « هنالك الولايه لله الحق ، هو خير ثوابا وخير عقبا » .

ثم تنتقل السورة الكريمة من ضرب المثل الجزئى الشخصى ، إلى ضرب

---

(١) تفسير أضواء البيان جـ ٥ ص ١٨٠

مثال آخر عام كلى ، فبينت أن الحياة الدنيا فى قصرها وذهاب زينتها . . . كتلك الجنة التى أصبحت حطاما ، بعد إخضرارها وكثرة ثمرها ، كما بينت أن هناك زينة فانية ، وأن هنالك أعمالا صالحة باقية . قال - تعالى - :

« واضْرِبْ لهُم مثَلَ الحياةِ الدُّنْيا كماءٍ أنْزَلناهُ من السماءِ فاختَلَطَ به نباتُ الأرضِ ، فأصبحَ هشيماً تذرُوهُ الرياحُ ، وكانَ اللهُ على كلِّ شيءٍ مقتدراً (٤٥) المالُ والبنُونَ زينةُ الحياةِ الدُّنيا ، والباقياتُ الصالحاتُ خيرٌ عندَ ربِّكَ ثوابًا وخيرٌ أَمَلاً (٤٦) » .

قال الإمام الرازى : اعلم أن المقصود : اضرب لهم مثلا آخر يدل على حقارة الدنيا ، وقلة بقائها . والكلام متصل بما تقدم من قصة المشركين المتكبرين على فقراء المؤمنين . . . »[1]

والمعنى . واذكر لهم - أيها الرسول الكريم - مايشبه هذه الحياة الدنيا فى حسنها ونضارتها ، ثم فى سرعة زوال هذا الحسن والنضارة ، لكى لا يركنوا إليها ، ولا يجعلوها أكبر همهم ، ومنتهى آمالهم . . .

وقوله : « كماء أنزلناه من السماء . . » بيان للمثل الذى شبه الله - تعالى - به الحياة الدنيا أى : مثلها فى ازدهارها ثم فى زوال هذا الازدهار ، كهيئة أو كصفة ماء أنزلناه بقدرتنا من السماء ، فى الوقت الذى نريد إنزاله فيه :

« فاختلط به نبات الأرض » والاختلاط والخلط : امتزاج شيئين فأكثر بعضهما ببعض .

أى : كماء أنزلناه من السماء ، فاختلط وامتزج بهذا الماء نبات الأرض ، فارتوى منه ، وصار قويا بهيجا يعجب الناظرين إليه .

وفى التعبير بقوله : « فاختلط به نبات الأرض » دون قوله : فاختلط بنبات

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٢١ ص ١٣٠

إشارة إلى كثرة الماء النازل من السماء، وإلى أنه السبب الأساسى فى ظهور هذا النبات، وفى بلوغه قوته ونضارته.

وقوله: «فأصبح هشيما تذروه الرياح» بيان لما صار إليه هذا النبات من يبوسته وتفتته، بعد إخضراره وشدته وحسنه.

قال القرطبى ما ملخصه: «هشيما» أى متكسرا متفتتا، يعنى بانقطاع الماء عنه، فحذف ذلك إيجازا لدلالة الكلام عليه. والهشم: كسر الشىء اليابس. والهشيم من النبات: اليابس المتكسر... ورجل هشيم: ضعيف البدن.

و«تذروه الرياح» أى تفرقه وتنسفه... يقال: ذرت الريح الشىء تذروه ذروا، إذا طارت به وأذهبته»[1].

أى: فأصبح النبات بعد إخضراره، يابسا متفتتا، تفرقه الرياح وتنسفه وتذهب به حيث شاءت وكيف شاءت

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد شبهت حال الدنيا فى حسنها وجمال رونقها، ثم سرعة زوالها وفنائها بعد ذلك، بحال النبات الذى نزل عليه الماء فاخضر واستوى على سوقه، ثم صار بعد ذلك يابسا متفتتا تذهب به الرياح حيث شاءت.

والتعبير بالفاء فى قوله ـ سبحانه ـ «فاختلط فأصبح..» يزيد الأسلوب القرآنى جمالا وبلاغة، لأن فاء التعقيب هنا تدل على قصر المدة التى استمر فيها النبات نضرا جميلا، ثم صار هشيما تذروه الرياح.

وهكذا الحياة تبدو للمتعلقين بها، جميلة عزيزة، ولكنها سرعان ما تفارقهم ويفارقونها، حيث ينزل بهم الموت فيجعل آمالهم تحت التراب.

ثم ختم ـ سبحانه ـ الآية بقوله، «وكان الله على كل شىء مقتدرا» أى:

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٠ ص ٤١٣

وكان الله - تعالى - وما زال - على كل شيء من الأشياء التي من جملتها الإنشاء والإفناء، كامل القدرة، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

وقد ذكر - سبحانه - مايشبه هذه الآية في سور كثيرة، ومن ذلك قوله - تعالى - : إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام، حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت، وظن أهلها أنهم قادرون عليها، أتاها أمرنا ليلا أونهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس، كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون »[١]

ثم بين - سبحانه - القيمة الحقيقية المال وللبنين فقال : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا ».

والمال : اسم لكل مايتموله الإنسان ويتملكه من النقود والعقار والحرث والأنعام . . . الخ والبنون : جمع ابن .

والزينة : مصدر . والمراد بها هنا ، ما في الشيء من محاسن ترغب الانسان فيه .

أي : المال والبنون زينة يتزين بها الانسان في هذه الحياة الدنيا ، ويتباهى بها على غيره .

وإنما كانا كذلك ، لأن في المال - كما يقول القرطبي - جمالا ونفعا ، وفي البنين قوة ودفعا . . .

قال الآلوسي : وتقديم المال على البنين - مع كونهم أعز ماله عند أكثر الناس لعراقته فيما نيط به من الزينة والامداد وغير ذلك . . ولأنه زينة بدونهم من غير عكس فإن من له بنون بغير مال فهو في أضيق حال . . . »[٢]

وفي التعبير بقوله - سبحانه - زينة ، بيان بديع . وتعبير دقيق لحقيقتهما ،

---

(١) سورة يونس الآية ٢٤

(٢) تفسير الآلوسي ج ١٥ ص ٢٨٦

فهما زينة وليسا قيمة ، فلا يصح أن توزن بهما أقدار الناس ، وإنما توزن أقدار الناس بالايمان والعمل الصالح ، كما قال - تعالى - « إن أكرمكم عند الله أتقاكم . . . »

ولذا جاء التعقيب منه - سبحانه - بقوله ، « والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا » .

أى : المال والبنون زينة يتزين ويتفاخر بها كثير من الناس فى هذه الحياة الدنيا ، وإذا كان الأمر كذلك فى عرف كثير منهم . فإن الأقوال الطيبة ، والأعمال الحسنة ، هى الباقيات الصالحات ، التى تبقى ثمارها للإنسان ، وتكون عند الله - تعالى - « خير » من الأموال والأولاد « ثوابا » وجزاء وأجرا « وخير أملا » حيث ينال بها صاحبها فى الآخرة ما كان يؤمله ويرجوه فى فى الدنيا من فوز بنعيم الجنة ، أما المال والبنون فكثيرا ما يكونان فتنة . .

وقد ساق الامام ابن كثير جملة من الآثار فى تعيين المراد بالباقيات الصالحات فقال : قال ابن عباس وسعيد بن جبير وغير واحد من السلف: والباقيات الصالحات » : الصلوات الخمس .

وقال عطاء بن أبى رباح وسعيد بن جبير عن ابن عباس : « والباقيات الصالحات » : سبحان الله والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر . . . »[1] .

ويبدو لنا أن قوله - تعالى - : « والباقيات الصالحات » لفظ عام ، يشمل كل قول ، أو عمل يرضى الله - عز وجل - . ويدخل فى ذلك دخولا أوليا : الصلوات الخمس وغيرها مما ذكره المفسرون من أقوال .

وسمى - سبحانه - ما يرضيه . من أقول ، وأعمال بالباقيات الصالحات لأنها باقية لصاحبها غير زائلة ولافانية ، بخلاف زينة الحياة الدنيا فإنها زائلة فانية . .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٥ ص ١٥٧

قال الامام ابن جرير ـ رحمه الله ـ وأولى الأقوال بالصواب قول من قال : من جميع أعمال الخير .. لأن ذلك كله من الصالحات التي تبقى لصاحبها في الآخرة ، وعليها يجازى ويثاب . وإن الله ـ عز وجل ـ لم يخصص من قوله « والباقيات الصالحات خير .. » بعضا دون بعض في كتاب ، ولا بخبر عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ[1]

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن أهوال يوم القيامة ، وذلك اليوم الذي تنفع فيه الباقيات الصالحات ، وليس الأموال ولا الأولاد ، فقال ـ تعالى ـ :

« ويومَ نُسَيِّرُ الجبالَ وتَرَى الأرْضَ بَارِزَةً وحشَرْنَاهُمْ فلَمْ نُغَادِرْ مِنهُم أحـداً (٤٧) وعَرِضُوا عَلَى ربِّكَ صفًّا ، لقدْ جِئْتُمونَا كما خَلَقْنا كُم أولَ مرةٍ ، بل زَعَمتُم أنْ لَنْ نجعَلَ لـكُمْ موعِـداً (٤٨) وَوُضِعَ الـكتابُ فترَى المجْرِمينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيـهِ ويقُولونَ يا ويلَتَنَا مَالِ هذَا الـكتابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً ولاَ كَبيرةً إلاَّ أَحْصَاهَا ، ووجَدُوا ما عَمِلُوا حاضراً . ولا يظْلِمُ ربُّكَ أَحداً (٤٩) » .

والظرف في قوله :ـ تعالى ـ « ويوم نسير الجبال » منصوب بفعـــل محذوف تقديره : « اذكر » .

والمراد بتسيير الجبـال : اقتلاعها من أماكنها ، وصيرورتها كالعهن المنفوش .

أي : واذكر ـ أيها العاقل ـ لتعتبر وتتعظ ، أهوال يوم القيامة ، يوم

(١) راجع تفسير ابن جرير جـ ١٥ ص ١٦٧

فتقتلع الجبال من أماكنها، ونذهب بها حيث شئنا، ونجعلها فى الجو كالسحاب، كما قال — سبحانه — : «وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب ...».

وكما قال — عز وجل — : «وسيرت الجبال فكانت سرابا».

وقوله: «وترى الأرض بارزة ..» بيان لحالة ثانية من أهوال يوم القيامة.

أى: وترى — أيها المخاطب — الأرض ظاهرة للأعين دون أن يسترها شىء من جبل، أو شجر، أو بنيان.

يقال: برز الشىء بروزا، أى: خرج إلى البراز — بفتح الباء — أى: الفضاء وظهر بعد الخفاء.

قال — تعالى — : «فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة. وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة، فيومئذ وقعت الواقعة».

ثم بين — سبحانه — حالة ثالثة من أحوال يوم القيامة فقال: «وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا».

أى: وحشرنا الخلائق جميعا، بأن جمعناهم فى المكان المحدد لجمعهم، دون أن نترك منهم أحدا، بل أخرجناهم جميعا من قبورهم لنحاسبهم على أعمالهم.

والفعل «نغادر» من المغادرة بمعنى الترك، ومنه الغدر لأنه ترك الوفاء والأمانة وسمى الغدير من الماء غديرا، لأن السيل ذهب وتركه.

ثم تذكر السورة الكريمة حالة رابعة من أهوال يوم القيامة، هى حالة العرض بعد حالة الجمع فتقول: «وعرضوا على ربك صفا ...».

أى: وأحضروا جميعا إلى ربك مصفوفين فى صف واحد أو فى صفوف متعددة، ليقضى فيهم — سبحانه — بقضائه العادل.

قال الآلوسى: أخرج ابن منده فى التوحيد عن معاذ بن جبل، أن النبى

- صلى الله عليه وسلم - قال : إن الله - تعالى - ينادي يوم القيامة ، يا عبادي : أنا الله لا إله إلا أنا أرحم الراحمين ، وأحكم الحاكمين . وأسرع الحاسبين . أحضروا حجتكم ، ويسروا جوابكم . فإنكم مسئولون محاسبون يا ملائكة أقيموا عبادي صفوفا على أطراف أنامل أقدامهم للحساب .

وفي الحديث الصحيح : يجمع الله - تعالى - الأولين والآخرين في صعيد واحد صفوفا يسمعهم ، وينفذهم البصر ...»[1] .

وقوله - سبحانه - : « لقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ... » مقول لقول محذوف ، وجملة « كما خلقناكم » نعت لمصدر محذوف .

والمعنى : ونقول لمنكري البعث والحساب بعد عرضهم علينا على سبيل التوبيخ والتأنيب : لقد جئتمونا - أيها المكذبون - مجيئا كائنا كمجيئكم عند خلقنا إياكم أول مرة . أي حفاة عراة لا مال معكم ولا ولد .

وعبر - سبحانه - بالماضي في قوله : « لقد جئتمونا ... » لتحقق الوقوع وتنزيله منزلة الواقع بالفعل .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : « ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ، وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم ، وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء . لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون[2] .

ثم ختم - سبحانه - الآية بالانتقال من توبيخهم هذا إلى توبيخ أشد وأقسى ، فقال : « بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا » .

أي : بل زعمتم أيها المكذبون بالبعث - أن لن نجعل لكم زمانا أو مكانا نجازيكم فيه على أعمالكم ، وأنكرتم إنكاراً مصحوبا بقسم أننا لا نبعث من يموت .

---

(١) تفسير الآلوسي جـ ١٥ ص ٢٨٩ .

(٢) سورة الأنعام الآية ٩٤

قال ـ تعالى ـ : « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت . بلى وعدا عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

ثم صور ـ سبحانه ـ أحوال المجرمين عندما يرون مصيرهم السيء فقال ـ تعالى ـ : ووضع الكتاب ، فترى المجرمين مشفقين مما فيه ، ويقولون: يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها » . . .

والمراد بالكتاب : جنسه ، فيشمل جميع الصحف التي كتبت فيها أعمال المكلفين في دار الدنيا .

أي : وأحضرت صحائف أعمال العباد ، ووضعت في ميزانهم « فترى » ـ أيها المخاطب ـ « المجرمين » كافة ، « مشفقين » ، خائفين « مما فيه » من جرائم وذنوب (ويقولون) على سبيل التفجع والتحسر عند معاينتهم لثقل ميزان سيئاتهم ، وخفة ميزان حسناتهم .

« يا ويلتنا » . والويلة : الهلاك وحلول الشر والقبح والحسرة، وهو-أي لفظ الويلة ـ : مصدر لا فعل له من لفظه .

وهذا النداء على التشبيه بشخص يطلب إقباله .

أي : ويقولون بأسف وندامة وحسرة: ياهلاكنا أقبل فهذا أوان إقبالك.
ثم يقولون على سبيل التعجب والدهشة من دقة ما اشتمل عليه هذا الكتاب : « مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها » ؟

أي : أي شيء ثبت لهذا الكتاب ، حيث نراه لا يترك معصية صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها علينا ، وسجلها في صحف أعمالنا .

ثم ختم ـ سبحانه ـ الآية الكريمة بما يدل على شمول علمه . ونفاذ قدرته وكمال عدله ، فقال : « ووجدوا ما عملوا حاضرا ، ولا يظلم ربك أحدا » .

---

(١) سورة النحل الآية ٣٨

أي : ووجدوا ماعملوه فى الدنيا حاضرا ومسطورا فى صحائف أعمالهم ، ولايظلم ربك أحدا من العباد ، وإنما يجازى كل إنسان على حسب مايستحقه من ثواب أو عقاب كما قال - سبحانه - : « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها ، وكفى بنا حاسبين »(١) .

وكما قال - عز وجل - : « إن الله لايظلم مثقال ذرة ، وإن تك حسنة يضاعفها ، ويؤت من لدنه أجرا عظيما »(٢) .

قال الإمام ابن كثير وقوله : « ولايظلم ربك أحدا ، أي : فيحكم بين عباده فى أعمالهم جميعا ، ولا يظلم أحدا من خلقه ، بل يغفر ويصفح ويرحم ، ويعذب من يشاء ، بقدرته وحكمته وعدله ...

وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد أخبرنا همام بن يحيى ، عن القاسم بن عبد الواحد المكى ، عن عبد الله بن محمد ابن عقيل إنه سمع جابر بن عبد الله يقول : بلغنى حديث عن رجل سمعه من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فاشتريت بعيراً ثم شددت عليه رحلى ، فسرت إليه شهرا ، حتى قدمت عليه الشام ، فإذا عبد الله بن أنيس ، فقلت للبواب : قل له جابر على الباب ، فقال ابن عبد الله ؟ فقلت : نعم ، فخرج يطأ ثوبه ، فاعتنقنى واعتنقته ، فقلت : حديث بلغنى عنك أنك سمعته من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى القصاص فخشيت أن تموت أو أموت قبل أن أسمعه ، فقال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : يحشر الله - عز وجل - الناس يوم القيامة ، عراة غُرلاً بُهماً ، أى : ليس معهم شىء ، ثم يناديهم بصوت يسمعه من بعد ، كما يسمعه من قرب : أنا الملك ، أنا الديان ، لاينبغى لأحد من أهل النار أن يدخل النار ، وله عند أحد من أهل الجنة حق ، حتى أقصه منه ، أى : حتى أمكنه من أخذ القصاص ، وهو أن يفعل به مثل فعله ، ولا ينبغى لأحد من أهل الجنة أن

(١) سورة الأنبياء آية ٤٧
(٢) سورة النساء آية ٤٠

يدخل الجنة ، وله عند رجل من أهل النار حق، حتى أقصه منه ، حتى اللطمة. قال : قلنا كيف وإنما نأتى الله - عز وجل - عراة غرلا بهما ؟ قال بالحسنات والسيئات[1] .

وبعد أن وضح -سبحانه- من أهوال الحشر ماتخشع له النفوس، وتهتز له القلوب ، أتبع ذلك بالنهى عن إتخاذ إبليس وذريته أولياء ، وببيان جانب من المصير الأليم الذى ينتظر المجرمين وشركاءهم ، فقال - تعالى - :

« وإذْ قُلْنَا للملائكةِ اسجدُوا لآدَم فَسَجدُوا إلاَّ إبليسَ كانَ من الجِنِّ ففَسقَ عن أمرِ ربِّه ، أَفَتَتَّخِذُونَه وذُرِّيتَه أوْلياءَ من دُونى وهُم لكُم عدوٌّ، بئْسَ للظَّالِمِينَ بدلاً (٥٠) ما أشْهدْتُم خَلْقَ السمواتِ والأرضِ ولاَ خَلْقَ أنفُسِهِمْ ، وما كنتُ مُتَّخِذَ المُضِلِّينَ عَضُداً (٥١) ويَوْمَ يقولُ نَادُوا شُركائِىَ الذينَ زَعمتُم ، فدَعَوْهُم فلَمْ يَسْتَجِيبُوا لهُم وجَعلْنَا بَيْنَهم مَوبِقاً (٥٢) ورأَى المجرِمونَ النَّارَ فظَنُّوا أنَّهُم مَواقِعُوهَا ولم يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفاً (٥٣) » .

فقوله - سبحانه - : (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ، فسجدوا إلا إبليس ..) .

تذكير لبنى آدم بالعداوة القديمة بين أبيهم آدم وبين إبليس وذريته ..

والمقصود بهذا التذكير تحذيرهم من وساوسه ، وحضهم على مخالفته ، كما قال - تعالى - : (إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً ، إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير)[2] .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ١٦٢ (٢) سورة فاطر الآية ٦

والملائكة : جمع ملك . وهم ـ كما وصفهم الله تعالى ـ : (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون)[1] .

وآدم : اسم لأبي البشر . قيل إنه إسم عبراني مشتق من أدمه بمعنى التراب،

والسجود لغة : التذلل والخضوع . وخص في الشرع بوضع الجبهة على الأرض بقصد العبادة .

وإبليس : اسم مشتق من الإبلاس ، وهو الحزن الناشيء عن شدة اليأس وفعله أبلس ، والراجح أنه اسم أعجمي . ومنعه من الصرف للعلمية والعجمية .

والمعنى . واذكر . أيها العاقل ـ لتعتبر وتتعظ ، وقت أن قلنا للملائكة أسجدوا لآدم ، سجود تحية واحترام وتوقير ، لا سجود عبادة وطاعة لأن ذلك لا يكون إلا لله رب العالمين . فامتثلوا أمرنا وسجدوا جميعاً ، كما قال ـ تعالى ـ : (فسجد الملائكة كلهم أجمعون) .

وجاء العطف في قوله (فسجدوا) بالفاء المفيدة للتعقيب ، للإشارة إلى أن الملائكة قد بادروا بالامتثال بدون تردد ، استجابة لأمر خالقهم ـ عز وجل ـ .

وقوله ـ تعالى ـ « إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه » كونه من الجن لا من الملائكة إذ من المقرر في علم الأصول ؛ أن الفاء من الحروف الدالة على التعليل ، كما في قولهم « سرق فقطعت يده »

أي : قطعت يده من أجل سرقته .. »

والمعنى : امتثل الملائكة جميعاً أمرنا فسجدوا لآدم ، إلا إبليس فإنه أبي واستكبر ولم يسجد ، لأنه كان من الجن ولم يكن من الملائكة (ففسق عن أمر ربه) أي . فخرج بذلك عن طاعتنا ، واستحق لعنتنا وغضبنا .

---

(١) سورة التحريم الآية ٦ .

وأصل الفسق : الخروج عن الطاعة مأخوذ من قولهم : فسق الرطب فسوقا إذا خرج عن قشره وهو أعم من الكفر ، فيقال للعاصى فاسق ، وللكافر فاسق .

قال بعض العلماء ما ملخصه : والخلاف فى كون إبليس من الملائكة أولا مشهور عند أهل العلم .

وحجة من قال إنه ليس منهم أمران : أحدهما : عصمة الملائكة من ارتكاب الكفر الذى ارتكبه إبليس ، فهم - كما قال الله عنهم - : (لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون) .

والثانى : أن الله - تعالى - صرح فى هذه الآية الكريمة بأنه كان الجن والجن غير الملائكة . قالوا : وهو نص قرآنى فى محل النزاع .

واحتج من قال بأنه منهم ، بما تكرر فى الآيات القرآنية من قوله : (فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس) قالوا : فإخراجه بالاستثناء من لفظ الملائكة دليل على أنه منهم ، والظواهر إذا كثرت صارت بمنزلة النص ومن المعلوم أن الأصل فى الاستثناء الاتصال لا الإنقطاع . .

قالوا : ولا حجة لمن خالفنا فى قوله - تعالى - (كان من الجن) ، لأن الجن قبيلة من الملائكة ، خلقوا من بين الملائكة من نار السموم . .

وأظهر الحجج فى المسألة . حجة من قال : إنه ليس من الملائكة ، لأن قوله - تعالى - (إلا إبليس كان من الجن . .) هو أظهر شىء فى الموضوع من نصوص الوحى ، والعلم عند الله - تعالى -[1] .

ومن المفسرين الذين يدل كلامهم على أن إبليس لم يكن من الملائكة . الإمام ابن كثير ، فقد قال - رحمه الله - قوله : (فسجدوا إلا إبليس كان من الجن) أى : خانه أصله ، فإنه خلق من مارج من نار ، وأصل خلق الملائكة

(١) تفسير أضواء البيان ج ٤ ص ١١ .

من نور، كما ثبت فى صحيح مسلم، عن عائشة عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: «خلقت الملائكة من نور، وخلق إبليس من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم». فعند الحاجة نضح كل إناء بما فيه، وخانه الطبع عند الحاجة. وذلك أنه قد توسم بأفعال الملائكة، وتشبه بهم، وتعبد وتنسك فلهذا دخل فى خطابهم، وخص بالمخالفة.

ونبه - تعالى - ها هنا على أنه «من الجن» أى: «أنه خلق من نار..»[1].

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بالإنكار والتوبيخ والتعجيب لمن يتبع خطوات إبليس وذريته فقال: «أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو، بئس للظالمين بدلا».

أى: أفبعد أن ظهر لكم - يا بنى آدم - ما ظهر من فسوق إبليس عن أمر ربه، تتخذونه وذريته الذين نهجوا نهجه، أولياء وأصفياء من دونى، فتطيعونهم بدل أن تطيعونى، والحال أن إبليس وذريته لكم عدو؟

لا شك أن من يفعل ذلك منكم يكون قد استبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير، وآثر الغى على الرشد، والضلالة على الهداية، والفسوق على الإيمان!!

فالجملة الكريمة تستبعد من كل عاقل، أن يطيع إبليس وذريته، بعد أن تبين له عداوتهم إياه، وحرصهم على إيقاعه فى موارد الهلكة والسوء...

وقوله: «وذريته» يدل على أن لإبليس ذرية، إلا أن الطريقة التى بواسطتها كانت له الذرية، لم يرد بها نص صحيح يعتمد عليه، لذا وجب تفويض علمها إلى - الله تعالى -.

قال الآلوسى عند تفسيره لهذه الآية: والظاهر أن المراد من الذرية الأولاد

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ١٦٣.

فتكون الآية دالة على أن له أولادا ، وبذلك قال جماعة .... وعن قتادة أنه قال : إنه ينكح وينسل كما ينسل بنو آدم .

ثم قال الآلوسى : ولا يلزمنا أن نعلم كيفية ولادته ، فكثير من الأشياء مجهول الكيفية عندنا ، ونقول به ... » [1] .

وقوله - تعالى - : «بئس للظالمين بدلا» حكم منه - سبحانه - بسوء التفكير والمصير على المتخذين إبليس وذريته أولياء من دونه - تعالى -

وبئس فعل يفيد الذم . والبدل : عن الشيء .

أى بئس للظالمين ، الواضعين للشيء فى غير موضعه ، ما فعلوه من تركهم طاعة الله - تعالى - وأخذهم فى مقابل ذلك طاعة إبليس وذريته .

والمخصوص بالذم محذوف دل عليه المقام والتقدير : بئس البدل والعوض عن طاعة الله - تعالى - طاعة إبليس وذريته .

ثم ساق - سبحانه - ما يدل على كمال علمه وقدرته ، وعلى عجز وجهالة المعبودين من دونه ، فقال - تعالى - : ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم . »

والضمير فى قوله « ما أشهدتهم » يعود إلى إبليس وذريته ، والاشهاد : بمعنى الاحضار والاعلام

أى : ما أشهدت إبليس وذريته خلق السموات والأرض ، لأنى خلقتهما دون أن أستعين فى خلقهما بأحد ، أو لأنى خلقتهما قبل خلقهم ، « ولا خلق أنفسهم » أى : ولا أشهدت بعضهم خلق بعض ، لأنى لا أستعين بأحد حين أخلق ما أشاء ، ولا أستشير أحدا حين أقدر ما أشاء

وما دام الأمر كذلك فكيف تتخذونهم أولياء وشركاء من دونى وأنا الخالق لكل شيء والقاهر فوق كل شيء ؟

---

(١) تفسير الالوسى ج ١٥ ص ٢٩٥ .

فالجملة الكريمة استئناف مسوق لبيان كمال علمه وقدرته - سبحانه - ، ولبيان عدم استحقاق إبليس وذريته للاتخاذ المذكور فى أنفسهم ، بعد بيان الموانع والصوارف التى تمنع وتصرف عن اتخاذهم أولياء ، من خباثة أصلهم، وفسوقهم عن أمر ربهم .

وهذا المعنى الذى صرحت به الآية الكريمة من تفرد الله - تعالى - بالخلق والعلم والقدرة ، قد جاء فى آيات أخرى منها قوله - تعالى - « هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه ، بل الظالمون فى ضلال مبين »[1] .

وقوله - سبحانه - « وما كنت متخذ المضلين عضدا » مؤكد لما قبله من تفرده - سبحانه - بالخلق والقدرة والعلم .

والعضد - بفتح العين وضم الدال - فى الأصل ، يطلق على العضد المعروف ما بين المرفق إلى الكتف . ويستعار للمعين والناصر فيقال : فلان عضدى ، أى : نصيرى .

ومنه قوله - تعالى - لنبيه موسى - عليه السلام - « سنشد عضدك بأخيك » أى : سنقويك ونعينك بأخيك هارون . وذلك لأن اليد قوامها العضد ، فإذا فقدته أصابها العجز .

أى : وما كنت متخذ المضلين عن سبيلى أعوانا وأنصاراً فى شأن من شئونى . وخص - سبحانه - المضلين بالذكر ، زيادة فى ذمهم وتوبيخهم ، وتقريعا لأمثالهم ، لأنه - عز وجل - ليس له أعوان ولا أنصار فيما يفعله لا من المضلين ولا من المهتدين .

ولم يقل - سبحانه - وما كنت متخذهم .. بالإضمار ، كما قال : « ما أشهدتهم » بل أظهر فى مقام الإضمار ، لتسجيل الضلال عليهم ، حتى ينصرف عنهم كل عاقل ، وللتنبيه على أن الضالين المضلين لا تصح الاستعانة بهم .

---

(١) سورة لقمان الآية ١١ .

ولقد حكى الله - تعالى - عن نبيه موسى - عليه السلام - براءته من المجرمين فقال : « قال رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيرا للمجرمين »[١] والظهير : الناصر والمعين لغيره .

ثم ساقت السورة الكريمة مشهدا من مشاهد القيامة - يكشف عن سوء المصير الذى ينتظر الشركاء وينتظر المجرمين . فقال - تعالى - : « ويوم يقول نادوا شركائى الذين زعمتم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم .... » .

أى : واذكر - أيها العاقل - يوم يقول الله - تعالى - للمجرمين والكافرين على سبيل التوبيخ والتقريع : أيها الكافرون ، نادوا شركائى الذين زعمتم أنهم ينفعونكم ويشفعون لكم فى هذا الموقف العصيب فدعوهم ، أى : فأطاعوا أمر خالقهم ، ودعوا شركاءهم لكى يستغيثوا بهم ، فلم يستجيبوا لهم ، أى : فلم يجدوا منهم أدنى استجابة فضلا عن النفع أو العون .

وقوله : « وجعلنا بينهم موبقا ، أى : وجعلنا بين الداعين والمدعوين مهلكا يشتركون فيه جميعا وهو جهنم .

فالموبق : اسم مكان من وبق وبوقا - كوثب وثوبا - أو وبق وبقا كفرح فرحا - إذا هلك . ويقال فلان أوبقته ذنوبه : أى أهلكته . ومنه قوله - تعالى - : أو يوبقهن بما كسبوا : أى يهلكهن . ومنه الحديث الشريف « كل يغدو فوبق نفسه - أى مهلكها - ومنه أيضاً قوله - صلى الله عليه وسلم - « اجتنبوا السبع الموبقات ، أى : المهلكات .

وقيل : الموبق اسم واد فى جهنم فرق الله به بينهم ، أى بين الداعين والمدعوين .

وقيل : كل حاجز بين شيئين فهو موبق .

(١) سورة القصص الآية ١٧ .

قال إبن جرير ـ رحمه الله ـ بعد أن ذكر جملة من الأقوال في ذلك : وأولى الأقوال في ذلك بالصواب ، القول الذى ذكرناه من أن الموبق بمعنى المهلك وذلك أن العرب تقول في كلامها : قد أوبقت فلانا إذا أهلكته ...»[1]

ثم بين ـ سبحانه ـ حالة المجرمين عندما يبصرون النار فقال : « ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفا » .

ورأى هنا بصرية . والظن بمعنى اليقين والعلم ، لأنهم أبصروا الحقائق ، وشاهدوا واقعهم الأليم مشاهدة لا لبس فيها ولا خفاء .

أي : وشاهد المجرمون بأعينهم النار ، فأيقنوا أنهم مخالطوها وواقعون فيها ، بسبب سوء أعمالهم ، وإنكشاف الحقائق أمامهم ، ولم يجدوا عنها مصرفا : مكانا ينصرفون إليه ، ويعتصمون به ، ليتخذوه ملجأ لهم منها :

فالمصرف : إسم مكان للجهة التي ينصرف إليها الإنسان للنجاة من ضر أحاط به .

وعبر ـ سبحانه ـ عن رؤيتهم للنار بالفعل الماضي ، لتحقق الوقوع .

وقال ـ سبحانه ـ « ورأى المجرمون » فوضع المظهر موضع المضمر ، لتسجيل الإجرام عليهم ، ولزيادة الذم لهم .

وقد ذكر ـ سبحانه ـ هنا أن المجرمين يرون النار ، وذكر في آية أخرى أنها تراهم ـ أيضا ـ قال ـ تعالى ـ : « إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لهـا تغيظا وزفيرا[2] .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد حكت لنا فسوق إبليس عن أمر ربه ، وحذرتنا من إتخاذه وليا ، ومن الانقياد لوسوسته وإغراءاته ، كما حكت لنا

---

(١) تفسير ابن جرير ج ١٥ ص ١٧٢

(٢) سورة الفرقان الآية ١٢

جانبا من أحوال المشركين وشركائهم ، وكيف أن الشركاء قد تخلوا عن عابديهم فى هذا اليوم العصيب ، بعد أن أحاطت النار بالجميع ، وأيقن المجرمون أنه لا انفكاك لهم منها ، ولا نجاة لهم من لهيبها . .

نسأل الله - تعالى - بفضله وكرمه أن ينجينا من هذا الموقف الرهيب .

ثم مدحت السورة الكريمة القرآن ، فوصفته بأن الله - تعالى - قد أكثر فيه من ضرب الأمثال ، ونوعها لتشمل جميع الأحوال ، وبينت سنة الله - تعالى - فى الأمم السابقة ، كما بينت وظيفة الرسل - عليهم الصلاة والسلام - وسوء عاقبة المكذبين لهم ، ومظاهر رحمة الله - تعالى - بالناس .

استمع إلى السورة الكريمة وهى تحكى كل هذه المعانى بأسلوبها البليغ المؤثر فتقول :

« ولقَدْ صرَّفنا فى هَذا القرآنِ للنَّاسِ مِنْ كلِّ مثَلٍ، وكانَ الإنسانُ أكثرَ شىءٍ جَدلاً (٥٤) وما منَع الناسَ أنْ يؤمِنُوا إذْ جاءَهم الهُدى ويستَغْفِرُوا ربَّهم إلاَّ أَنْ تأتِيَهُمْ سُنَّةُ الأوَّلينَ أو يأتِيَهم العـــذابُ قُبُلاً (٥٥) وما نُرسِلُ المُرسلِينَ إلاَّ مُبشِّرِينَ ومنذِرِينَ ، ويجادِلُ الذينَ كفرُوا بالباطِلِ ليُدْحِضُوا به الحقَّ ، واتَّخَـذُوا آياتى وما أُنذِرُوا هُزُواً (٥٦) ومَنْ أَظلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بآياتِ رَبِّه فأعْرَضَ عَنْها ونَسِيَ ما قدَّمَتْ يداهُ، إنَّا جَعَلْنا عَلَى قلُوبِهِم أكِنَّةً أن يفقَهُوهُ وفى آذانِهِم وقراً ، وإنْ تدعُهم إلى الهُدَى فلَنْ يَهتَـدُوا إذاً أبداً (٥٧) وربُّكَ الغَفورُ ذُو الرَّحمةِ ، لو يؤاخِذُهُم بما كسَبُوا لعجَّلَ لهُم العذابَ ، بل لهُم موعدٌ لن يجدُوا من دُونِه موئِلاً (٥٨) وتلكَ القُرَى أهلَكناهُمْ لمَّا ظلَمُوا ، وَجَعلْنَا لمهلِكِهِمْ مَوعداً (٥٩) » .

وقوله ـ سبحانه ـ « صرفنا » من التصريف بمعنى التنويع والتكرير .

والمثل : هو القول الغريب السائر فى الآفاق الذى يشبه مضربه مورده .

وقد أكثر القرآن من ضرب الأمثال لإيضاح المعنى الخفى وتقريب الأمر المعقول من الأمر المحسوس ، وعرض الأمر الغائب فى صورة الحاضر . .

والمعنى : ولقد كررنا ورددنا ونوعنا فى هذا القرآن من أجل هداية الناس ، ورعاية مصلحتهم ومنفعتهم . من كل مثل من الأمثال التى تهدى النفوس ، وتشفى القلوب ، لعلهم بذلك يسلكون طريق الحق ، ويتركون طريق الباطل .

فالمقصود بهذه الجملة الكريمة ، الشهادة من الله ـ تعالى ـ بأن هذا القرآن الذى أنزله ـ سبحانه ـ على نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيه من الأمثال الكثيرة المتنوعة النافعة ، ما يرشد الناس إلى طرق الحق والخير ، متى فتحوا قلوبهم له ، وأعملوا عقولهم لتدبره وفهمه .

ومفعول « صرفنا » محذوف ، و « من » لابتداء الغاية . أى : ولقد صرفنا البينات والعبر والحكم فى هذا القرآن ، من أنواع ضرب المثل المنفعة الناس ليهتدوا ويذكروا . .

ثم بين ـ سبحانه ـ موقف الإنسان من هذه الأمثال فقال : « وكان الإنسان أكثر شىء جدلا » .

والمراد بالانسان : الجنس ، ويدخل فيه الكافر والفاسق دخولا أوليا .

والجدل : الخصومة والمنازعة مع الغير فى مسألة من المسائل .

أى : وكان الانسان أكثر شىء مجادلة ومنازعة لغيره ، أى : أن جدله أكثر من جدل كل مجادل .

قال الامام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : ولقد بينا للناس فى هذا القرآن ، ووضحنا لهم الأمور ، وفصلناها . كيلا يضلوا عن الحق . . ومع هذا البيان ، فالانسان كثير المجادلة والمعارضة للحق بالباطل ، إلا من هدى الله وبصره لطريق النجاة . .

قال الامام أحمد : حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا شعيب ، عن الزهرى قال : أخبرنى على بن الحسين ، أن الحسين بن على أخبره ، أن على بن أبى طالب أخبره، أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ طرق عليا وفاطمة ليلة فقال : ألا تصليان ؟ فقلت يا رسول الله ، إنما أنفسنا بيد الله ، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا، فانصرف حين قلت ذلك ، ولم يرجع إلى شيء ، ثم سمعته وهو مول يضرب فخذه ويقول «وكان الانسان أكثر شيء جدلا »(١) .

وفى التعبير عن الانسان فى هذه الجملة بأنه « شيء » ، وأنه أكثر شيء جدلا، إشعار لهذا الانسان بأن من الواجب عليه أن يقلل من غروره وكبريائه . وأن يشعر بأنه مخلوق من مخلوقات الله الكثيرة ، وأن ينتفع بأمثال القرآن ومواعظه وهداياته ... لا أن يجادل فيها بالباطل .

ومنهم من يرى أن المراد بالانسان هنا : الكافر ، أو شخص معين قيل هو النضر بن الحارث . وقيل : أبى بن خلف . .

لكن الظاهر أن المراد به العموم ـ كما أشرنا ـ ، ويدخل فيه هؤلاء دخولا أوليا .

ثم حكى ـ سبحانه ـ الأسباب التى منعت بعض الناس من الايمان فقال : « وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم ، إلا أن تأتيهم سنة الأولين ، أو يأتيهم العذاب قبلا » .

والمراد بالناس : كفار مكة ومن حذا حذوهم فى الشرك والضلال . والمراد بسنة الأولين : ما أنزله ـ سبحانه ـ بالأمم السابقة من عذاب بسبب إصرارها على الكفر والجحود .

والمعنى : وما منع الكفار من الايمان وقت أن جاءهم الهدى عن طريق نبيهم ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ومن أن يستغفروا ربهم من ذنوبهم ، إلا ما سبق

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ١٦٧ .

فى علمنا ، من أنهم لا يؤمنون ، بل يستمرون على كفرهم حتى تأتيهم سنة الأولين، أى : سنتنا فى إهلاكهم بعذاب الاستئصال بسبب إصرارهم على كفرهم

ويجوز أن يكون الكلام على حذف مضاف ، و «أن» وما بعدها فى قوله «إلا أن تأتيهم» فى تأويل فاعل الفعل «منع» .

والمعنى : وما منع الناس من الايمان والاستغفار وقت مجىء الهدى إليهم، إلا طلب إتيان سنة الأولين ، كأن يقولوا - كما حكى الله - تعالى - عن بعضهم: «فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين» .

فسنة الأولين أنهم طلبوا من أنبيائهم تعجيل العذاب ، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر

وقوله : «أو يأتيهم العذاب قبلا» بيان لعذاب آخر ينتظرونه .

وكلمة «قبلا» قرأها عاصم والكسائى وحمزة - بضم القاف والباء - على أنها جمع قبيل وهو النوع فيكون المعنى : أو يأتيهم العذاب على صنوف وأنواع مختلفة ، ومن جهات متعددة يتلو بعضها بعضا .

وقرأها الباقون : «قبلا» - بكسر القاف وفتح الباء - بمعنى عيانا ومواجهة .
والمعنى : أو يأتيهم العذاب عيانا وجهارا . وأصله من المقابلة ، لأن المتقابلين يعاين ويشاهد كل منهما الآخر .

وهى على القراءتين منصوبة على الحالية من العذاب .

فحاصل معنى الآية الكريمة أن هؤلاء الجاحدين لا يؤمنون ولا يستغفرون إلا حين نزول العذاب الدنيوى بهم وهو ما اقتضته سنة الله - تعالى - فى أمثالهم، أو حين نزول أصناف العذاب بهم فى الآخرة .

ثم بين - تعالى - وظيفة الرسل فقال : «وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ....»

أى : تلك هى وظيفة الرسل الكرام الذين نرسلهم لهداية الناس وإخراجهم من ظلمات الكفر إلى نور الايمان .

فهم يبشرون المؤمنين بحسن العاقبة وجزيل الثواب، وينذرون الفاسقين والكافرين بسوء العاقبة، وشديد العقاب.

وقوله - تعالى -: «ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق..» بيان لموقف الكافرين من الرسل - عليهم الصلاة والسلام -.

ويجادل من المجادلة بمعنى المخاصمة والمنازعة. ومفعوله محذوف.

والباطل: هو الشيء الزائل المضمحل الذي هو ضد الحق والعدل. والحق هو الشيء الثابت القويم الذي تؤيده شريعة الله - عز وجل -.

والدحض: الطين الذي لا تستقر عليه الأقدام. فمعنى يدحضوا: يزيلوا ويبطلوا تقول العرب: دحضت رجل فلان، إذا زلت وزلقت.. ومنه قوله - تعالى -: «حجتهم داحضة عند ربهم».

والمعنى: ويجادل الذين كفروا رسلهم بالجدال الباطل، ليزيلوا به الحق الذي جاء به هؤلاء الرسل ويدحضوه ويبطلوه، والله - تعالى - متم نوره ولو كره الكافرون، فإن الباطل مهما طال فإن مصيره إلى الاضمحلال والزوال.

وقوله - تعالى -: «واتخذوا آياتي وما أنذروا هزوا» معطوف على ما قبله لبيان رذيلة أخرى من رذائل هؤلاء الكافرين.

والمراد بآيات الله: تلك المعجزات التي أيد الله - تعالى - بها رسله سواء أكانت قولا أم فعلا، ويدخل فيها القرآن دخولا أوليا.

أي: أن هؤلاء الكافرين لم يكتفوا بجدال رسلهم بالباطل، بل أضافوا إلى ذلك أنهم اتخذوا الآيات التي جاء بها الرسل كدليل على صدقهم، واتخذوا ما أنذروهم به من قوارع إذا ما استمروا على كفرهم. اتخذوا كل ذلك «هزوا» أي: اتخذوه محل سخريتهم ولعبهم ولهوهم واستخفافهم. كما قال - سبحانه -: «وقال الرسول يارب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا».

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة المعرضين عن التذكير وعن آيات الله فقال : « ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسى ماقدمت يداه ... »

والاستفهام هنا للنفي والإنكار والمراد بالآيات : آيات القرآن الكريم، لقوله - تعالى - بعد ذلك : « أن يفقهوه » .

والمراد بالنسيان : الترك والاهمال وعدم التفكر والتدبر في العواقب .

أي : ولا أحد أشد ظلما وبغيا . من إنسان ذكره مذكر ووعظه بآيات الله التي أنزلها على رسوله - صلى الله عليه وسلم - ، فأعرض عنها دون أن يقبلها أو يتأملها ، بل نبذها وراء ظهره ، ونسى ما قدمت يداه من السيئات والمعاصي ، نسيان ترك وإهمال واستخفاف .

ثم بين - سبحانه - علة هذا الإعراض والنسيان فقال : « إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا ، وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبدا » .

والأكنة : جمع كنان بمعنى غطاء . والوقر : الثقل والصمم . يقال : فلان وقرت أذنه ، أي : ثقل سمعها وأصيبت بالصمم .

أي : إنا جعلنا على قلوب هؤلاء الظالمين المعرضين عن الحق ، أغطية تمنع قلوبهم عن وصول النور إليها ، وتحجبها عن فقه آياته - سبحانه - وجعلنا - أيضا - في آذانهم صمما وثقلا عن سماع ما ينفعهم وذلك بسبب استحبابهم العمى على الهدى ، وإيثارهم الكفر على الايمان .

« وإن تدعهم » أيها الرسول الكريم « إلى الهدى » والرشد « فلن » يستجيبوا لك ، ولن « يهتدوا إذا أبدا » إلى الحق وإلى الصراط المستقيم ، بسبب زيغ قلوبهم ، واستيلاء الكفر والجحود والعناد عليها .

والضمير في قوله « أن يفقهوه » يعود إلى الآيات ، وتذكيره وإفراده باعتبار المعنى ، إذ المراد منها القرآن الكريم .

وجاءت الضمائر فى أول الآية بالإفراد ، كما فى قوله « ذكر » و « أعرض عنها » و « نسى ماقدمت يداه » باعتبار لفظ « من » فى قوله « ومن أظلم . . » وجاءت بعد ذلك بالجمع كما فى قوله — سبحانه — : « إنا جعلنا على قلوبهم أكنة ... » باعتبار المعنى .

وهذا الأسلوب كثير فى القرآن الكريم ، ومنه قوله — تعالى — : « ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ، قد أحسن الله له رزقا » .

فالضمير فى قوله « يؤمن » يعمل ويدخله » جاء بصيغة الإفراد باعتبار لفظ « من » ، وفى قوله : « خالدين فيها » جاء بصيغة الجمع باعتبار معنى « من » .

ثم ساق — سبحانه — بعد ذلك مايدل على سعة رحمته ، وعظيم فضله فقال : « وربك الغفور ذو الرحمة ، لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب ، بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا » .

أى : وربك — أيها الرسول الكريم — هو صاحب المغفرة الكثيرة ، وصاحب الرحمة التى وسعت كل شىء . لو يؤاخذ الناس بما كسبوا من الذنوب والمعاصى ، لعجل لهم العذاب بسبب مايرتكبونه من كفر وآثام ، ولكنه — سبحانه — لم يعجل لهم العذاب رحمة منه وحلما .

وجملة « بل لهم موعد .. » معطوفة على مقدر ، فكأنه — سبحانه — قال : لكنه — سبحانه — لم يؤاخذهم ، بل جعل لهم وقتا معينا لعذابهم ، لن يجدوا من دون هذا العذاب « موئلا » .

أى ملجأ يلتجئون إليه ، أو مكانا يعتصمون به .

فالموئل : اسم مكان . يقال : وأل فلان إلى مكان كذا يئل وألا . . إذا لجأ إليه ليعتصم به من ضر متوقع .

فالآية الكريمة تبين أن الله — تعالى — بفضله وكرمه لا يعاجل الناس بالعقاب ، ولكنه — عز وجل — ليس غافلا عن أعمالهم ، بل يؤخرهم إلى

الوقت الذى تقتضيه حكمته ، لكى يعاقبهم على ما ارتكبوه من ذنوب وآثام .

وفى معنى هذه الآية وردت آيات كثيرة ، منها قوله ـ تعالى ـ : « ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ، ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى . فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا »[1] .

وقوله ـ تعالى ـ : وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ، وإن ربك لشديد العقاب »[2] ثم بين ـ سبحانه سننه فى الأمم الماضية فقال : « وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا » .

واسم الاشارة « تلك » تعود إلى القرى المهلكة بسبب كفرها وفسوقها عن أمر ربها ، كقرى قوم نوح وهود وصالح ـ عليهم السلام ـ .

والقرى : جمع قرية والمراد بها أهلها الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والجحود .

أى : وتلك القرى الماضية التى أصر أهلها على الكفر والفسوق والعصيان أهلكناهم بعذاب الاستئصال فى الدنيا ، بسبب هذا الكفر والظلم ، وجعلنا لوقت هلاكهم موعدا لا يتأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون .

ولفظ « تلك » مبتدأ ، والقرى صفة له أو عطف بيان ، وجملة « أهلكناهم » هى الخبر .

وقوله « لما ظلموا » بيان للأسباب التى أدت بهم إلى الهلاك والدمار ، أى : أهلكناهم بسبب وقوع الظلم منهم واستمرارهم عليه .

وجىء باسم الاشارة « تلك » للإشعار بأن أهل مكة يمرون عن تلك القرى الظالمة المهلكة ، ويعرفون أماكنهم معرفة واضحة عند أسفارهم من مكة

---

(١) سورة فاطر الآية ٤٥

(٢) سورة الرعد الآية ٦

إلى بلاد الشام . قال - تعالى - « وإنكم لتمرون عليهم مصبحين . وبالليل أفلا تعقلون »[1] .

وقوله : « وجعلنا لمهلكهم موعدا » قرأ الجمهور « لمهلكهم » - بضم الميم وفتح اللام - على صيغة المفعول ، وهو محتمل ان يكون مصـــدرا ميميا ، أي : وجعلنا لإهلاكهم موعدا . ويحتمل أن يكون اسم زمان ، أي : وجعلنا لزمان إهلاكهم موعدا .

وقرأ حفص عن عاصم « لمهلكهم » بفتح الميم وكسر اللام - فيكون اسم زمان ، وقـــرأ شعبة عن عاصم « لمهلكهم » - بفتح الميم واللام - فيكون مصدرا ميميا .

وإلى هنا نجد الآيات الكريمة قد وضحت أن القرآن الكريم قد نوع الله - تعالى - فيه الأمثال لقوم يعقلون ، كما بينت أن الإنسان مجبول على المجادلة والمخاصمة . وأن المشركين قد أصروا على شركهم بسبب انطماس بصائرهم ، وزيغهم عن الحق ، وأن الرسل - عليهم الصلاة والسلام - وظيفتهم البلاغ والتبشير والإنذار ، وأن عاقبة الجاحدين الذين ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم هي النار وبئس القرار ، وأن الله - تعالى - يمهل الظالمين ولا يهملهم ؛ فهو كما قال - سبحانه - « نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم . وأن عذابى هو العذاب الأليم »[2] .

* * *

ثم ساق - سبحانه - قصة فيها مافيها من الأحكام والعظات ، ألا وهي قصة موسى - عليه السلام - مع عبد من عباد الله الصالحين ، فقال - تعالى - :

---

(١) سورة الصافات الآيتان ١٣٧ ، ١٣٨

(٢) سورة الحجر الآيتان ٤٩ ، ٥٦

« وإذ قَالَ مُوسَى لفتاهُ لاأَبرَحُ حتى أَبْلُغَ مَجْمَعَ البحْرينِ أوْ أَمْضِيَ حُقُباً (٦٠) فلمَّا بلغاَ مجمعَ بينِهماَ نسِيَا حوتَهُما فاتَّخَذ سبيلَهُ فى البَحْرِ سرَباً (٦١) فلمَّا جاوَزَا قالَ لِفتاهُ آتناَ غداءناَ لقد لَقِيناَ مِنْ سَفَرِناَ هذَا نَصَباَ (٦٢) قالَ أرأيتَ إذْ أَوَيْناَ إلى الصخْرةِ فإنِّى نسيتُ الحوتَ وما أنْسَانِيه إلاَّ الشيطانُ أَنْ أذكُرَهُ ، واتخذَ سبيله فى البَحرِ عجبا (٦٣) قالَ ذلِكَ ما كـنَّا نَبْغِ ، فارتدَّا على آثارِهما قصَصاً (٦٤) فوجدَا عبداً من عبادِناَ آتيناهُ رحمةً من عندناَ ، وَعلَّمناَهُ من لدُنَّا عِلماً (٦٥) » .

قال الإمام الرازى ماملخصه : اعلم أن هذا ابتداء قصة ثالثة ذكرها الله - تعالى - فى هذه السورة ، وهى أن موسى - عليه السلام - ذهب إلى الخضر ليتعلم منه ، وهذا وإن كان كلاما مستقلا فى نفسه إلا أنه يعين على ماهو المقصود فى القصتين السابقتين : أما نفع هذه القصة فى الرد على الكفار الذين افتخروا على فقراء المسلمين ، فهو أن موسى مع كثرة علمه وعمله ... ذهب إلى الخضر لطلب العلم وتواضع له ...

وأما نفع هذه القصة فى قصة أصحاب الكهف ، فهو أن اليهود قالوا لكفار مكة : إن أخبركم محمد - صلى الله عليه وسلم - عن هذه القصة فهو نبى وإلا فلا ، وهذا ليس بشىء ، لأنه لايلزم من كونه نبيا أن يكون عالما بجميع القصص كما أن كون موسى نبيا لم يمنعه من الذهاب ليتعلم منه »[1] .

وموسى - عليه السلام - هو ابن عمران ، وهو أحد أولى العزم من الرسل ، وينتهى نسبه إلى يعقوب - عليه السلام - .

وفتاه : هو يوشع بن نون ، وسمى بذلك لأنه كان ملازما لموسى - عليه السلام - ويأخذ عنه العلم .

(١) التفسير الكبير للفخر الرازى ج ٢١ ص ١٤٣

وقوله : « لا أبرح » أى : لا أزال سائرا . ومنه قوله - تعالى - « لن نبرح عليه عاكفين » . من برح الناقص .

قال الجمل : واسمها مستتر وجوبا ، وخبرها محذوف ، تقديره : لا أبرح سائرا ، وقوله « حتى أبلغ . . . » غاية لهذا المقدر . ويحتمل أنها تامة فلا تستدعى خبرا ، بمعنى : لا أزول عما أنا عليه من السير والطلب ولا أفارقه حتى أبلغ ... » [1] .

« ومجمع البحرين » : المكان الذى فيه يلتقى البحر الأحمر بالبحر الأبيض المتوسط .

قال الآلوسى : والمجمع : الملتقى ، وهو إسم مكان ... والبحران : بحر فارس والروم ، كما روى عن مجاهد وقتادة وغيرهما وملتقاهما مما يلى المشرق ولعل المراد مكان يقرب فيه التقاؤهما . . . وقيل البحران : بحر الأردن وبحر القلزم ... » [2] .

وقال بعض العلماء : والأرجح - والله أعلم - أن مجمع البحرين : بحر الروم وبحر القلزم .

أى : البحر الأبيض والبحر الأحمر . ومجمعهما مكان التقائهما فى منطقة البحيرات المرة وبحيرة التمساح . أو أنه مجمع خليجى العقبة والسويس فى البحر الأحمر . فهذه المنطقة كانت مسرح تاريخ بنى إسرائيل بعد خروجهم من مصر . وعلى أية حال فقد تركها القرآن مجملة فنكتفى بهذه الإشارة » [3] .

والمعنى : واذكر - أيها الرسول الكريم - لقومك لكى يعتبروا ويتعظوا

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٣٢

(٢) تفسير الآلوسى ج ١٥ ص ٣١٢ .

(٣) فى ظلال القرآن ص ٢٢٨٧ للأستاذ سيد قطب .

وقت أن قال أخوك موسى - عليه السلام - لفتاه يوشع بن نون ، أصحبني في في رحلتي هذه فإني لا أزال سائرا حتى أصل إلى مكان التقاء البحرين . فأجد فيه بغيتي ومقصدي ، « أو أمضي » في سيري « حقبا » أي : زمنا طويلا ، إن لم أجد ما أبتغيه هناك .

والحقب - بضم الحاء والقاف - جمعه أحقاب ، ومعناه : الحقبة - بكسر الحاء - وجمعها حقب - كسدرة وسدر - والحقبة - بضم الحاء - وجمعها : حقب كغرفة وغرف - . قيل : مدتها ثمانون عاما . وقيل سبعون . وقيل : زمان من الدهر مبهم غير محدد .

والآية الكريمة تدل بأسلوبها البليغ ، على أن موسى - عليه السلام - كان قد صمم على بلوغ مجمع البحرين مهما تكن المشقة في سبيل ذلك ، ومهما يكن الزمن الذي يقطعه في سبيل الوصول إلى غايته ، وهو يعبر عن هذا التصميم بما حكاه عنه القرآن بقوله : « أمضي حقبا » .

وقد أشار الآلوسي - رحمه الله - إلى سبب تصميم موسى على هذه الرحلة فقال : « وكان منشأ عزيمة موسى - عليه السلام - على ما ذكر ، ما رواه الشيخان وغيرهما من حديث ابن عباس عن أبي بن كعب ، أنه سمع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « إن موسى - عليه السلام - قام خطيبا في بني إسرائيل فسئل : أي الناس أعلم ؟ فقال : أنا . فعاتبه الله - تعالى - ، إذ لم يرد العلم إليه - سبحانه - فأوحى الله - تعالى - إليه ، إن لي عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك .... » .

وفي رواية أخرى عن أبي - أيضا - عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - أن موسى - عليه السلام - سأل ربه فقال : أي رب فقال ، إن كان في عبادك أحد هو أعلم مني فدلني عليه ، فقال له : « نعم في عبادي من هو أعلم منك ، ثم نعت له مكانه وأذن له في لقائه » [1] .

(١) تفسير الآلوسي ج ١٥ ص ٣١٣ .

ثم تقص علينا السورة الكريمة ما حدث بعد ذلك فتقول: « فلما بلغ مجمع بينهما نسيا حوتهما . فاتخذ سبيله فى البحر سربا » .

والفاء فى قوله : « فلما بلغا » وفى قوله « فاتخذ سبيله . . . » هى الفصيحة

والسرب : النفق الذى يكون تحت الأرض . أو القناة التى يدخل منها الماء إلى البستان لسقى الزرع .

والمعنى : وبعـد أن قال موسى لفتاه ما قال ، أخذا فى السير إلى مجمع البحرين ، فلما بلغا هـذا المكان « نسيا حوتهما » أى : نسيا حوتهما ونسيا تفقده أمره ، فحيي الحوت ، وسقط فى البحر ، واتخذ « سبيله » أى طريقه « فى البحر سربا » .

أى : واتخذ الحوت طريقة فى البحر ، فكان هذا الطريق مثل السرب أى النفق فى الأرض بحيث يسير الحوت فيه ، وأثره واضح .

قال الإمام ابن كثير : قوله « فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما » وذلك أنه قد أمر بحمل حوت مملوح - أى مشوى - معه وقيل له : متى فقدت الحوت ، فهو ثمة - أى فالرجل الصالح الذى هو أعلم منك يا موسى فى هـذا المكان - . فسارا حتى بلغا مجمع البحرين . وهناك عين يقال لها عين الحياة ، فناما هناك ، وأصاب الحوت من رشاش ذلك الماء فاضطرب ، وكان فى مكتل مع يوشع ، وطفر من المكتل إلى البحر ، فاستيقظ يوشع ، وسقط الحوت فى البحر ، وجعل يسير فيه ، والماء له مثل الطاق - أى مثل البناء المقوس كالقنطرة - لا يلتئم بعده . ولهذا قال : « فاتخذ سبيله فى البحر سربا » اى : مثل السرب فى الأرض »[1] .

وقال الإمام البيضاوى : قوله « نسيا حوتهما » أى : نسى موسى أن

(١) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ١٧١ .

يطلبه ويتعرف حاله ، ونسى يوشع أن يذكر له ما رأى من حياته ووقوعه فى البحر » (١) .

ثم بين ـ سبحانه ـ ما كان منهما بعد ذلك فقال : « فلما جاوزا » أى : المكان الذى فيه مجمع البحرين .

« قال » موسى ـ عليه السلام ـ « لفتاه » يوشع بن نون « آتنا غداءنا » أى : أحضر لنا ما نأكله من هذا الحوت المشوى الذى معنا : ثم علل موسى ـ عليه السلام ـ هذا الطلب بقوله : « لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا » أى : تعبا وإعياء .

واسم الإشارة « هذا » مشار به إلى سفرهما المتلبسان به .

قالوا . ولكن باعتبار بعض أجزائه ، فقد صح أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « لم يجد موسى شيئا من التعب حتى جاوز المكان الذى أمر به » (٢).

وقوله ـ سبحانه ـ : « قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت » حكاية لما رد به يوشع على موسى ـ عليه السلام ـ عندما طلب منه الغداء .

والاستفهام فى قوله « أرأيت » للتعجب مما حدث أمامه من شأن الحوت حيث عادت إليه الحياة ، وقفز فى البحر ، ومع ذلك نسى يوشع أن يخبر موسى عن هذا الأمر العجيب .

أى : قال يوشع لموسى ـ عليه السلام ـ : تذكر وانتبه واستمع إلى ما سألقيه عليك من خبر هذا الحوت ، أرأيت ما دهانى فى وقت أن أوينا ولجأنا إلى الصخرة التى عند مجمع البحرين ، فإنى هناك نسيت أن أذكر لك ما شاهدته منه من أمور عجيبة ، فقد عادت إليه الحياة ، ثم قفز فى البحر .

---

(١) تفسير البيضاوى ج ٢ ص ١٨ .

(٢) تفسير الآلوسى ج ١٥ ص ٣١٧ .

وقال « إذ أوينا إلى الصخرة » دون أن يذكر مجمع البحرين ، زيادة فى تحديد المكان وتعيينه . وأوقع النسيان على الحوت دون الغداء الذى طلبه منه موسى ، للاشعار بأن الغداء الذى طلبه موسى منه ، هو ذلك الحوت الذى فقداه .

وقوله « وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره » جملة معترضة جىء بها لبيان ما يجرى مجرى السبب فى وقوع النسيان منه .

وقوله « أن أذكره » بدل إشتمال من الهاء فى « أنسانيه » .

أى : وما أنسانى تذكيرك بما حدث من الحوت إلا الشيطان الذى يوسوس للانسان ، بوساوس متعددة ، تجعله يذهل وينسى بعض الأمور الهامة .

وقوله « واتخذ سبيله فى البحر عجبا » معطوف عن قوله « فإنى نسيت الحوت » .

أى : نسيت أن أخبرك بأن الحوت عندما أوينا إلى الصخرة عادت إليه الحياة ، واتخذ طريقه فى البحر اتخاذا عجيبا ، حيث صار يسير فيه وله أثر ظاهر فى الماء والماء من حوله كالقنطرة التى تنفذ منها الأشياء .

وعلى هذا تكون جملة « واتخذ سبيله فى البحر عجبا » من بقية كلام يوشع للتعجب مما حدث من الحوت ، حيث عادت إليه الحياة بقدرة الله - تعالى - ، واتخذ طريقه فى البحر بتلك الصورة العجيبة .

وقيل : إن هذه الجملة من كلام الله - تعالى - لبيان طرف آخر من أمر هذا الحوت العجيب ، بعد بيان أمره قبل ذلك بأنه اتخذ سبيله فى البحر سربا .

ويبدو لنا أن الرأى الأول أرجح ، لأن سياق الآية يدل عليه ، لذا إكتفى به بعض المفسرين دون أن يشير إلى غيره .

قال الامام الرازى : قوله « واتخذ سبيله فى البحر عجبا » فيه وجوه :

الأول : أن قوله « عجبا » صفة لمصدر محذوف ، كأنه قيل : واتخذ سبيله فى البحر إتخاذا عجبا. ووجه كونه عجبا إنقلابه من المكتل وصيرورته حيا وإلقاء نفسه فى البحر .

الثانى : أن يكون المراد منه ما ذكرنا من أنه - تعالى - جعل الماء عليه كالطاق وكالسرب .

الثالث : قيل إنه تم الكلام عند قوله « واتخذ سبيله فى البحر » ثم قال بعده : عجبا . والمقصود منه تعجب يوشع من تلك الحالة العجيبة التى رآها ، ثم نسيانه لها . . . »[1] .

وهنا يحكى القرآن ما يدل على أن موسى - عليه السلام - قد أدرك أنه تجاوز المكان الذى حدده له ربه - تعالى - للقاء العبد الصالح فقال : « قال ذلك ما كنا نبغ ، فارتدا على آثارهما قصصا » .

أى قال موسى لفتاه : ذلك الذى ذكرته لى من أمر نسيانك لخبر الحوت هو الذى كنا نبغيه ونطلبه ، فإن العبد الصالح الذى نريد لقاءه موجود فى ذلك المكان الذى فقدنا فيه الحوت .

« فارتدا على آثارهما قصصا » أى : فرجعا من طريقهما الذى أتيا منه ، يتتبعان آثارهما لئلا يضلا عنه ، حتى انتهيا عائدين مرة أخرى إلى موضع الصخرة التى فقد الحوت عندها .

وقصصا : من القص بمعنى إتباع الأثر . يقال : قص فلان أثر فلان قصا وقصصا إذا تتبعه .

ثم حكى القرآن ما تم لهما بعد أن عادا إلى مكانهما الأول فقال : « فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما » .

أى : وبعد أن عادا إلى الصخرة عند مجمع البحرين مرة أخرى وجدا «عبدا

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٢١ ص ١٤٧ .

من عبادنا » الصالحين . والتنكير فى « عبدا » للتفخيم ، والإضافة فى «عبادنا» للتشريف والتكريم .

« آتيناه رحمة من عندنا » أى : هذا العبد الصالح منحناه وأعطيناه رحمة عظيمة من عندنا وحدنا لا من عند غيرنا : واختصصناه بها دون غيره .

وهذه الرحمة تشمل النعم التى أنعم الله ـ تعالى ـ بها عليه ـ كنعمة الهداية والطاعة وغيرهما .

« وعلمناه من لدنا علما » أى : وعلمناه من عندنا لا من عند غيرنا علماً خاصاً ، لا يتيسر إلا لمن نريد تيسيره ومنحه له .

والمراد بهذا العبد : الخضر ـ عليه السلام ـ كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة .

ومن العلماء من يرى أنه كان نبيا ، ومنهم من يرى أنه كان عبدا صالحاً اختصه الله بلون معين من العلم اللدنّى .

أخرج البخارى وغيره عن أبى هريرة عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : إنما سمى الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء ، فإذا هى تهتز من خلفه خضراء[1] .

ويرى المحققون من العلماء أنه قد مات كما يموت سائر الناس . وإلى ذلك ذهب الإمام البخارى وشيخ الإسلام ابن تيمية ، وتلميذه ابن القيم وغيرهم .

ويرى آخرون أنه حى وسيموت فى آخر الزمان .

قال ابن القيم : إن الأحاديث التى يذكر فيها أنه حى كلها كذب ، ولا يصح فيها حديث واحد . وهذه المسائل من المسائل التى فصل العلماء الحديث عنها . فارجع إلى أقوالهم فيها إن شئت[2] .

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٥ ص ٣١٩ .

(٢) راجع ابن كثير ج ٥ ص ١٧١ . والآلوسى ج ١٥ ص ٣١٩ وأضواء البيان ج ٤ ص ١٥٧ .

ثم حكى -سبحانه- بعد ذلك، ما دار بين موسى والخضر -عليهما السلام- بعد أن التقيا فقال - تعالى - :

« قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً (٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِي -إِنْ شَاءَ اللَّهُ- صَابِراً وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْراً (٦٩) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً (٧٠)».

أي : قال موسى للخضر - عليهما السلام - بعد أن التقيا « هل أتبعك » أي: هل تأذن لى فى مصاحبتك وأتباعك . بشرط أن تعلمنى من العلم الذى علمك الله إياه : شيئا أسترشد به فى حياتى، وأصيب به الخير فى دينى .

فأنت ترى أن موسى - عليه السلام - قد راعى فى مخاطبته للخضر أسمى ألوان الأدب اللائق بالأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - حيث خاطبه بصيغة الاستفهام الدالة على التلطف، وحيث أنزل نفسه منه منزلة المتعلم من المعلم، وحيث استأذنه فى أن يكون تابعا له، ليتعلم منه الرشد والخير .

قال بعض العلماء : فى هذه الآية دليل على أن المتعلم تبع للعالم، وإن تفاوتت المراتب، ولا يظن أن فى تعلم موسى من الخضر ما يدل على أن الخضر كان أفضل من موسى، فقد يأخذ الفاضل عن الفاضل، وقد يأخذ الفاضل عن المفضول، إذا أختص الله - تعالى - أحدهما بعلم لا يعلمه الآخر، فقد كان علم موسى يتعلق بالأحكام الشرعية والقضاء بظاهرها، وكان علم الخضر يتعلق ببعض الغيب ومعرفة البواطن ... »(١) .

---

(١) تفسير فتح البيان ج ٥ ص ٤٧٧.

ثم حكى - سبحانه - مارد به الخضر على موسى فقال : « قال إنك لن تستطيع معى صبرا » .

أى : قال الخضر لموسى إنك ياموسى إذا اتبعتنى ورافقتنى ، فلن تستطيع معى صبرا ، بأى وجه من الوجوه .

قال ابن كثير : أى : أنت لا تقدر يا موسى أن تصاحبنى ، لما ترى من الأفعال التى تخالف شريعتك ، لأنى على علم من علم الله - تعالى - ما علمك إياه ، وأنت على علم من علم الله - تعالى - ما علمنى إياه ، فكل منا مكلف بأمور من الله دون صاحبه ، وأنت لا تقدر على صحبتى »(١) .

وقوله : « وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا » تعليل لعدم إستطاعة الصبر معه .

أى : وكيف تصبر ياموسى على أمور ستراها منى . هذه الأمور ظاهرها أنها منكرات لا يصح السكوت عليها ، وباطنها لا تعلمه لأن الله لم يطلعك عليه ؟

فالخبر بمعنى العلم . يقال : خبر فلان الأمر يخبره : أى : علمه . والاسم الخبر ، وهو العلم بالشىء ، ومنه الخبير ، أى : العالم .

وكأن الخضر يريد بهذه الجملة الكريمة أن يقول لموسى : إنى واثق من أنك لن تستطيع معى صبرا ، لأن ما سأفعله سيصطدم بالأحكام الظاهرة ، وبالمنطق العقلى ، وبغيرتك المعهودة فيك ، وأنا مكلف أن أفعل ما أفعل ، لأن المصلحة الباطنة فى ذلك ، وهى تخفى عليك . . .

ولكن موسى - عليه السلام - الحريص على تعلم العلم النافع ، يصر على مصاحبة الرجل الصالح ، فيقول له فى لطف وأدب ، مع تقديم مشيئة الله - تعالى - : « ستجدنى - إن شاء الله - صابرا ، ولا أعصى لك أمرا » .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ١٧٨

أي : قال موسى للخضر « ستجدني إن شاء الله صابرا » معك، غير معترض عليك ، ولا أعصى لك أمرا من الأمور التي تكلفني بها .

وقدم موسى ـ عليه السلام ـ المشيئة ، أدبا مع خالقه ـ عز وجل ـ واستعانة به ـ سبحانه ـ على الصبر وعدم المخالفة .

وهنا يحكى القرآن الكريم أن الخضر ، قد أكد ما سبق أن قاله لموسى ، وبين له شروطه إذا أراد مصاحبته ، فقال : « قال فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا » .

أي : قال الخضر لموسى على سبيل التأكيد والتوثيق « ياموسى إن رافقتني وصاحبتني ، ورأيت مني أفعالا لا تعجبك ، لأن ظاهرها يتنافى مع الحق . فلا تعترض عليها ، ولا تناقشني فيها ، بل اتركني وشأني ، حتى أبين لك في الوقت المناسب السبب في قيامي بتلك الأفعال ، وحتى أكون أنا الذي أقصره لك .

قالوا : « وهذا من الخضر تأديب وإرشاد لما يقتضي دوام الصحبة ، فلو صبر ـ موسى ـ ودأب لرأى العجب » .

ثم تحكي السورة بعد ذلك ثلاثة أحداث فعلها الخضر ولكن موسى لم يصبر عليها ، بل اعترض وناقش ، أما الحادث الأول فقد بينه ـ سبحانه ـ بقوله :

« فَانْطَلَقَا ، حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا ، قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (٧١) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٢) قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (٧٣) » .

---

(١) تفسير القرطبي جـ ١١ ص ١٨ .

وقوله : « فانطلقا » بيان لما حدث منهما بعد أن استمع كل واحد منهما إلى ما قاله صاحبه.

أى : فانطلق موسى والخضر ـ عليهما السلام ـ على ساحل البحر، ومعهما يوشع بن نون، ولم يذكر فى الآية لأنه تابع لموسى.

ويرى بعضهم أن موسى ـ عليه السلام ـ صرف فتاه بعد أن التقى بالخضر .

أخرج الشيخان عن ابن عباس : أنهما انطلقا يمشيان على ساحل البحر فرت بهما سفينة « فكلموهم أن يحملوهم ، فعرفوا الخضر فحملوهما بغير نول : أى أجر »(١) .

وقوله : « حتى إذا ركبا فى السفينة خرقها» بيان لما فعله الخضر بالسفينة.

أى : فانطلقا يبحثان عن سفينة ، فلما وجداها واستقرا فيها ، ما كان من الخضر إلا أن خرقها . قيل : بأن قلع لوحا من ألواحها .

وهنا ما كان من موسى إلا أن قال على سبيل الاستنكار والتعجب مما فعله : « أخرقتها لتغرق أهلها ... » .

أى : أفعلت ما فعلت لتكون عاقبة الراكبين فيها الغرق والموت بهذه الصورة المؤلمة ؟

« لقد جئت شيئاً إمرا » والإمر : الداهية . وأصله كل شىء شديد كبير ومنه قولهم : إن القوم قد أمروا . أى : كثروا واشتد شأنهم . ويقال : هذا أمر إمر ، أى : منكر غريب .

أى : قال موسى للخضر بعد خرقه للسفينة : لقد جئت شيئا عظيما ، وارتكبت أمرا بالغا فى الشناعة . حيث عرضت ركاب السفينة لخطر الغرق.

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٥ ص ٣٣٥ .

وهنا أجابه الخضر بقوله : «ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبرا» أى : ألم أقل لك سابقا إنك لن تستطيع مصاحبتى ، ولا قدرة لك على السكوت على تصرفاتى التى لا تعرف الحكمة من ورائها ؟

ولكن موسى - عليه السلام - رد معتذرا لما فرط منه وقال: «ولا تؤاخذنى» أيها العبد الصالح «بما نسيت» أى : بسبب نسيانى لوصيتك فى ترك السؤال والاعتراض حتى يكون لى منك البيان .

«ولا ترهقنى من أمرى عسرا» ، أى : ولا تكلفنى من أمرى مشقة فى صحبتى إياك .

يقال : أرهق فلان فلانا ، إذا أتعبه وأثقل عليه وحمله مالا يطيقه .

والمراد : التمس لى عذرا بسبب النسيان، ولا تضيق على الأمر، فإن فى هذا التضييق ما يحول بينى وبين الانتفاع بعلمك .

وكأن موسى - عليه السلام - الذى اعتزم الصبر وقدم المشيئة ، ورضى بشروط الخضر فى المصاحبة .. كأنه قد نسى كل ذلك أمام المشاهدة العملية، وأمام التصرف الغريب الذى صدر من الخضر دون أن يعرف له سببا .

وهكذا الطبيعة البشرية تلتقى فى أنها تجد للتجربة العملية وقعا وطعما ، يختلف عن الوقع والطعم الذى تجده عند التصور النظرى .

فموسى - عليه السلام - وعد الخضر بأنه سيصبر . . . إلا أنه بعد أن شاهد مالا يرضيه اندفع مستنكرا .

أما الحادث الثانى الذى لم يستطع موسى أن يقف أمامه صامتا ، فقد حكاه القرآن فى قوله :

« فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلامًا فَقَتَلَهُ ، قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا (٧٤) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ

مَعِيَ صَبراً (٧٥) قالَ إنْ سَأَلتُكَ عن شيءٍ بعدَها فلا تصاحِبْني قَدْ بَلغتَ مِنْ لدُنِّي عُذراً (٧٦) » .

أي : فانطلق موسى والخضر المرة الثانية بعد خروجهما من السفينة ، وبعد أن قبل الخضر اعتذار موسى.

« حتى إذا لقيا غلاما » فى طريقهما ،ما كان من الخضر إلا أن أخذه « فقتله ».

وهنا لم يستطع موسى - عليه السلام - أن يصبر على ما رأى،أو أن يكظم غيظه ، فقال باستنكار وغضب : « أقتلت نفسا زكية » أى : طاهرة بريئة من الذنوب « بغير نفس » »

أى : بغير أن ترتكب ما يوجب قتلها ، لأنها لم تقتل غيرها حتى تقتص منها. أى : أن قتلك لهذا الغلام كان بغير حق.

« لقد جئت » أيها الرجل « شيئا نكرا » أى: منكرا عظيما . يقال . نكر الأمر ، أى : صعب واشتد . والمقصود : لقد جئت شيئا أشد من الأول فى فظاعته واستنكار العقول له .

ومرة أخرى يذكره الخضر بالشرط الذى اشترطه عليه . وبالوعد الذى قطعه على نفسه ، فيقول له : « ألم اقل لك إنك لن تستطيع معى صبرا » .

وفى هذه المرة لا يكتفى الخضر بقوله : « ألم أقل إنك . . . » بل يضيف لفظ « لك » زيادة فى التحديد والتعيين والتذكير.

أى : ألم أقل لك أنت يا موسى لا لغيرك على سبيل التأكيد والتوثيق : إنك لن تستطيع معى صبرا ، لأنك لم تحط علما بما أفعله .

ويراجع موسى نفسه . فيجد أنه قد خالف ما اتفق عليه مع الرجل الصالح مرتين ، فيبادر بأخبار صاحبه أن يترك له فرصة أخيرة فيقول : «إن سألتك»

أيها الصديق « عن شيء بعدها » أي : بعد هذه المرة الثانية «فلا تصاحبني» أي: فلا تجعلني صاحبا أو رفيقا لك ، فإنك « قد بلغت من لدني عذرا » أي : فإنك قد بلغت الغاية التي تكون معذورا بعدها في فراق ، لأني أكون قد خالفتك مراراً .

وهذا الكلام من موسى - عليه السلام - يدل على إعتذاره الشديد للخضر ، وعلى شدة ندمه على مافرط منه ، وعلى الاعتراف له بخطئه .

قال القرطبي : كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا دعا لأحد بدأ بنفسه فقال يوما : « رحمة الله علينا وعلى موسى ، لو صبر على صاحبه لرأى العجب » ولكنه قال : « إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني ... »[1] .

ثم تسوق لنا السورة الكريمة الحادث الثالث والأخير في تلك القصة الزاخرة بالمفاجآت والعجائب فتقول :

« فانطَلَقَا حتى إذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أهلَهَا ، فأَبَوْا أنْ يُضَيِّفُوهُما ، فوجَدا فيها جِداراً يريدُ أن ينقضَّ فأقامَهُ ، قالَ لوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عليه أجراً (٧٧) قالَ هذا فِراقُ بيْنِي وبيْنِكَ سأُنَبِّئُكَ بتَأْوِيلِ ما لَمْ تَسْتَطِع عليه صَبْراً (٧٨) » .

أي : فانطلق موسى والخضر - عليهما السلام - يتابعان سيرهما ، حتى إذا أتيا أهل قرية ، قيل هي « أنطاكيه » ، وقيل: هي قرية بأرض الروم ...

« استطعما أهلها » والاستطعام : سؤال الطعام . والمراد به هنا سؤال الضيافة لأنه هو المناسب لمقام موسى والخضر - عليهما السلام - ولأن قوله - تعالى - بعد ذلك : « فأبوا أن يضيفوهما » يشهد له .

أي : فأبى وامتنع أهل تلك القرية عن قبول ضيافتهما بخلا منهم وشحا .

---

(١) تفسير القرطبي ج ١١ ص ٢٣ .

وقوله - تعالى - « فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه» معطوف على « أتيا » أي : وبعد أن امتنع أهل القرية عن استضافتهما ، تجولا فيها «فوجدا فيها جدارا » أي : بناء مرتفعا « يريد أن ينقض » أي : ينهدم ويسقط « فأقامه » أي الخضر بأن سواه وأعاد إليه إعتداله . أو بأن نقضه وأخذ في بنائه من جديد .

وهنا لم يتمالك موسى - عليه السلام - مشاعره، لأنه وجد نفسه أمام حالة متناقضة ، قوم بخلاء أشحاء لا يستحقون العون ... ورجل يتعب نفسه في إقامه حائط مائل لهم . . . هلا طلب منهم أجرا على هذا العمل الشاق ، خصوصا وهما جائعان لا يجدان مأوى لهم في تلك القرية !

لذا بادر موسى - عليه السلام - ليقول للخضر : « لو شئت لاتخذت عليه أجراً » ،

أي : هلا طلبت أجرا من هؤلاء البخلاء على هذا العمل ، حتى تنتفع به، وأنت تعلم أننا جائعان وهم لم يقدموا لنا حق الضيافة .

فالجملة الكريمة تحريض من موسى للخضر على أخذ الأجر على عمله ، ولوم له على ترك هذا الأجر مع أنهما في أشد الحاجة إليه .

وكان هذا التحريض من موسى للخضر - عليهما السلام - هو نهاية المرافقة والمصاحبة بينهما ، ولذا قال الخضر لموسى : « هـذا فراق بيني وبينك » أي : هذا الذي قلته لي ، يجعلنا نفترقان ، لأنك قد قلت لي قبل ذلك : « إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني » وها أنت تسألني وتحرضني على أخذ الأجر . . .

ومع ذلك فانتظر : سأنبئك ، قبل مفارقتي لك « بتأويل » أي : بتفسير وبيان ما خفي عليك من الأمور الثلاثة التي لم تستطع عليها صبرا، لأنك لم يكن عندك ما عندي من العلم بأسرارها الباطنة التي أطلعني الله - تعالى - عليها .

ثم حكى القرآن الكريم ما قاله الخضر لموسى عليهما السلام ـ فى هذا الشأن فقال ـ تعالى ـ .

« أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِى الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ، وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (٧٩) » .

أى قال الخضر لموسى : « أما السفينة » التى أغرقتها ولم ترض عنه « فكانت لمساكين يعملون فى البحر » أى : لضعفاء من الناس لا يستطيعون دفع الظلم عنهم ، ولم يكن لهم مال يتعيشون منه سواها ، فكان الناس يركبون فيها ويدفعون لهؤلاء المساكين الأجر الذين ينتفعون به .

« فأردت أن أعيبها » أى : أن أجعلها ذات عيب بالخرق الذى خرقتها فيه ، ولم أرد أن أغرق أهلها كما ظننت يا موسى ، والسبب فى ذلك ، أنه « كان وراءهم ملك » ظالم ، من دأبه أن يتعقب السفن الصالحة الصحيحة ، ويستولى عليها ، ويأخذها إغتصابا وقسرا من أصحابها .

فهذا العيب الذى أحدثته فى السفينة كان سببا فى نجاتها من يد الملك الظالم ، وكان سببا فى بقائها فى أيدى أصحابها المساكين ..

فالضرر الكبير الذى أحدثته بها ، كان دفعا لضرر أكبر كان ينتظر أصحابها المساكين لو بقيت سليمة .

ويرى بعضهم أن المراد بالوراء الأمام . ويرى آخرون أن المراد به الخلف . وقال الزجاج : وراء : يكون للخلف والأمام . ومعناه : ما توارى عنك واستتر .

وظاهر قوله ـ تعالى ـ : « يأخذ كل سفينة غصبا » يفيد أن هذا الملك كان يأخذ كل سفينة سواء أكانت صحيحة أم معيبة ، ولكن هذا الظاهر غير مراد . وإنما المراد : يأخذ كل سفينة سليمة . بدليل : « فأردت أن أعيبها » أى : لكى لا يأخذها ، ومن هنا قالوا : إن لفظ « سفينة » هنا موصوف لصفة محذوفة . أى : يأخذ كل سفينة صحيحة .

و « غصبا » منصوب على أنه مصدر مبين لنوع الأخذ . والغصب - من باب ضرب - : أخذ الشيء ظلما وقهرا .

ثم بين - سبحانه - ما رد به الخضر على موسى فى اعتراضه على الحادثة الثانية فقال - تعالى - :

« وأمَّا الغُلامُ فكانَ أبواهُ مؤمِنَيْنِ ، فخشِينا أن يُرهِقَهُما طُغياناً وكُفراً (٨٠) فأرَدْنا أن يُبدِلَهُما ربُّهما خيراً منه زكاةً وأقربَ رُحْماً (٨١) » .

أى : « وأما الغلام » الذى سبق لى أن قتلته، واعترضت على فى قتله ياموسى « فكان أبواه مؤمنين » ولم يكن هو كذلك فقد أعلمنى الله - تعالى - أنه طبع كافرا .

« فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا » والخشية : الخوف الذى يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون عن علم بما يخشى منه .

و « يرهقهما » من الإرهاق وهو أن يحمل الإنسان ما لا يطيقه .

أى : فخشينا لو بقى حيا هذا الغلام أن يوقع أبويه فى الطغيان والكفر ، لشدة محبتهما له ، وحرصهما على إرضائه .

« فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه . . » والإبدال : رفع شيء، وإحلال آخر محله .

أى : « فأردنا » بقتله « أن يبدلهما ربهما » بدل هذا الغلام الكافر الطاغى، ولدا آخر « خيرا منه » أى من هذا الغلام « زكاة » أى : طهارة وصلاحا « وأقرب رحما » أى : وأقرب فى الرحمة بهما ، والعطف عليهما، والطاعة لهما .

ثم ختم - سبحانه - القصة ، ببيان ما قاله الخضر لموسى فى تأويل الحادثة الثالثة فقال - تعالى - :

« وأمَّا الجِدَارُ فكانَ لِغُلامَينِ يتيمَينِ في المدينةِ وكانَ تحتَه كنزٌ لهُمَا ، وكان أبوهُما صالحاً ، فأرادَ ربُّكَ أن يَبْلُغا أشدَّهما ، ويستَخْرِجا كنْزَهما رحمةً مِنْ رَبِّكَ ، وما فعَلْتُه عَنْ أَمْرِى ، ذلكَ تأويلُ ما لَمْ تَسْطِع عليه صَبْراً (٨٢) » .

أى : « وأما الجدار » الذى أتعبت نفسى فى إقامته ، ولم يعجبك هذا منى « فكان لغلامين يتيمين » مات أبوهما وهما صغيران ، وهذان الغلامان يسكنان فى تلك المدينة ، التى عبر عنها القرآن بالقرية سابقا فى قوله : « فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية . . .

« قالوا : ولعل التعبير عنها بالمدينة هنا ، لإظهار نوع اعتداد بها ، باعتداد ما فيها من اليتيمين ، وما هو من أهلها وهو أبوهما الصالح »[1] .

« وكان تحته » أى تحت هذا الجدار « كنز لهما » أى : مال مدفون من ذهب وفضة . . . ولعل أباهما هو الذى دفنه لهما . . . .

« وكان أبوهما صالحا » أى : رجلا من أصحاب الصلاح والتقوى ، فكان ذلك منه سببا فى رعاية ولديه ، وحفظ مالهما .

« فأراد ربك » ومالك أمرك ، ومدبر شئونك ، والذى يجب عليك أن تستسلم وتنقاد لإرادته .

« أن يبلغا أشدهما » أى : كمال رشدهما ، وتمام نموهما وقوتهما :

« ويستخرجا كنزهما » من تحت هذا الجدار وهما قادران على حمايته ، ولولا أنى أقمته لانقض وخرج الكنز من تحته قبل اقتدارهما على حفظه وعلى حسن التصرف فيه .

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٦ ص ٢٢

« رحمة من ربك » أي : وما أراده ربك - ياموسى - بهذين الغلامين ، هو الرحمة ليس بعدها رحمة ، والحكمة التى ليس بعد حكمة .

فقوله « رحمة » مفعول لأجله .

ثم ينفض الخضر يده من أن يكون قد تصرف بغير أمر ربه فيقول : « وما فعلته عن أمرى ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا » .

أى : وما فعلت مافعلته عن إجتهاد منى ، أو عن رأيي الشخصى ، وإنما فعلت ما فعلت بأمر ربى وما لك أمرى ، وذلك الذى ذكرته لك من تأويل تلك الأحداث هو الذى لم تستطع عليه صبرا ، ولم تطق السكوت عليه ، لأنك لم يطلعك الله - تعالى - على خفايا تلك الأمور وبواطنها ... كما أطلعنى .

وحذفت التاء من « تستطع » تخفيفا . يقال : استطاع فلان هذا الشيء واسطاعه بمعنى أطاقه وقدر عليه .

وبذلك انكشف المستور لموسى عليه السلام - وظهر ما كان خافيا عليه .

هذا ، وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لآيات تلك القصة جملة من الأحاديث ، منها مارواه الشيخان ، ومنها مارواه غيرهما ، ونكتفى هنا بذكر حديث واحد .

قال - رحمه الله - قال البخارى : حدثنا الحميدى ، حدثنا سفيان ، حدثنا عمرو بن دينار ، أخبرنى سعيد بن جبير قال . قلت لابن عباس : إن نوفا البكالى يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى نبي بنى إسرائيل .

قال ابن عباس : كذب عدو الله ، حدثنا أبى بن كعب أنه سمع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : إن موسى قام خطيبا فى بنى إسرائيل ، فسئل أى الناس أعلم ؟ فقال : أنا . فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه . فأوحى الله إليه : إن عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك . فقال موسى : يارب ، وكيف لى به ؟

قال : تأخذ معك حوتا ، تجعله بمكتل ، فحيثما فقدت الحوت فهو ثم »

فأخذ حوتا ، فجعله فى مكتل،ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون . حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رءوسهما فناما ، واضطرب الحوت فى المكتل ، فخرج منه فسقط فى البحر ، واتخذ سبيله فى البحر سربا ، وأمسك الله عن الحوت جرية الماء ، فصار عليه مثل الطاق .

فلما استيقظ نسى صاحبه أن يخبره بالحوت .

فانطلقا بقية يومهما وليلتهما ، فلما كان الغـــد قال موسى لفتـاة : « آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا»ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذى أمره الله به .

قال له فتاه : « أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره ، واتخذ سبيله فى البحر عجبا ».قال : فكان للحوت سربا ولموسى وفتاه عجبا .

فقال موسى : « ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصا » .

قال : فرجعا يقصان أثرهما ، حتى انتهيا إلى الصخرة ، فإذا رجل مسجى - أى مغطى - بثوب » - فسلم عليه موسى ، فقال الخضر:وأنى بأرضك السلام قال : أنا موسى : قال : موسى نبي إسرائيل قال : نعم،أتيتك لتعلمنى مما علمت رشدا . قال : إنك لن تستطيع معى صبرا .

يا موسى : إنى على علم من علم الله علمنيه ، لا تعلمه أنت ، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه .

قال موسى : ستجدنى إن شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا.قال الخضر فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا .

فانطلقا يمشيان ، فمرت سفينة فكلموهم أن يحملوه . فعرفوا الخضر .

فحملوهم بغير نول - أى بغير أجر - فلما ركبا فى السفينة، لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحا من ألواح السفينة بالقدوم .

فقال له موسى : قد حملونا بغير نول ، فعمدت إلى سفينتهم فخرقتها، لتغرق أهلها ، لقد جئت شيئاً إمرا .

قال له الخضر : ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبرا . قال : لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا .

قال : وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، كانت الأولى من موسى نسيانا ، قال : وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة . فنقر فى البحر نقرة. فقال له الخضر : ما علمى وعلمك فى علم الله ، إلا مثل ما نقص هذا العصفور من البحر .

ثم خرجا من السفينة ، فبينما هما يمشيان على الساحل ، إذا أبصر الخضر غلاما يلعب مع الغلمان ، فأخذ الخضر رأسه فاقتلعه بيده فقتله . فقال له موسى: « أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكرا . قال : ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبرا .

قال : وهذه أشد من الأولى . قال : قال : إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى .

«فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه . قال : لو شئت لاتخذت عليه أجرا . قال: هذا فراق بينى وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع على صبرا » .

فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : وددنا أن موسى كان قد صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما »(1) .

وقد أخذ العلماء من هذه القصة أحكاما وآدابا من أهمها ما يأتى :

---

(1) راجع تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ١٧٢ طبعة دار الشعب .

١ — أن الإنسان مهما أوتى من العلم ، فعليه أن يطلب المزيد ، وأن لا يعجب بعلمه ، فالله - تعالى - يقول : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا»،وطلب من نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يتضرع إليه بطلب الزيادة من العلم فقال: « وقل رب زدنى علما » .

٢ - أن الرحلة فى طلب العلم من صفات العقلاء . فموسى -عليه السلام- وهو من أولى العزم من الرسل ، تجشم المشاق والمتاعب ، لكى يلتقى بالرجل الصالح ، لينتفع بعلمه ، وصمم على ذلك مهما كانت العقبات بدليل قوله - تعالى - حكاية عنه : « لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقبا » .

قال القرطبى عند تفسيره لهذه الآية : فى هذا من الفقه رحلة العالم فى طلب الازدياد من العلم ، والاستعانة على ذلك بالخادم والصاحب واغتنام لقاء الفضلاء والعلماء وإن بعدت أقطارهم . وذلك كان دأب السلف الصالح ، وبسبب ذلك وصل المرتحلون لطلب العلم إلى الحظ الراجح ، وحصلوا على السعى الناجح ، فرسخت لهم فى العلوم أقدام ، وصح لهم من الذكر والأجر والفضل أفضل الأقسام .

قال البخارى : ورحل جابر بن عبد الله مسيرة شهر إلى عبد الله بن أنيس فى طلب حديث»[1] .

٣ — جواز إخبار الإنسان عما هو من مقتضى الطبيعة البشرية، كالجوع والعطش والتعب والنسيان فقد قال موسى لفتاه : « آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا ، ورد عليه فتاه بقوله : « أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره .... »

وفى هذا الرد - أيضا - من الأدب ما فيه ، فقد نسب سبب النسيان إلى الشيطان ، وإن كان الكل بقضاء الله - تعالى - وقدره .

٤ — أن العلم على قسمين : علم مكتسب يدركه الإنسان باجتهاده وتحصيله ..

(١) تفسير القرطبى جـ ١١ ص ١١ .

بعد عون الله تعالى ـ له . وعلم لدنى يهبه الله ـ سبحانه ـ لمن يشاء من عباده .
فقد قال ـ تعالى ـ فى شأن الخضر « وعلمناه من لدنا علما » أى : علما خاصا أطلعه الله عليه يشمل بعض الأمور الغيبية ....

٥ ـ أن على المتعلم أن يخفض جناحه للمعلم ، وأن يخاطبه بأرق العبارات وألطفها ، حتى يحصل على ما عنده من علم بسرور وارتياح .

قال بعض العلماء ما ملخصه : وتأمل ما حكاه الله عن موسى فى قوله للخضر : « هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشدا » فقد أخرج الكلام بصورة الملاطفة والمشاورة ، فكأنه يقول له . هل تأذن لى فى ذلك أولا ، مع إقراره بأنه يتعلم منه ، بخلاف ما عليه أهل الجفاء أو الكبر ، الذى لا يظهر للمعلم افتقاره إلى علمه ... »[1] .

٦ ـ أنه لا بأس على العالم ، إذا اعتذر للمتعلم عن تعليمه ، لأن المتعلم لا يطيق ذلك ، لجهله بالأسباب التى حملت العالم على فعل تلك الأمور التى ظاهرها يخالف الحق والعدل والمنطق العقلى ، وأن معرفة الأسباب تعين على الصبر .

فقد قال الخضر لموسى : « إنك لن تستطيع معى صبرا وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا ، فقد جعل الموجب لعدم صبره . عدم إحاطته خبرا بالأمر .

٧ ـ أن من علامات الإيمان القوى ، أن يقدم الإنسان المشيئة عند الإقدام على الأعمال ، وأن العزم على فعل الشىء ليس بمنزلة فعله ، فقد قال موسى للخضر « ستجدنى إن شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا » ومع ذلك فعند ما رأى منه أفعالا يخالف ظاهرها الحق والصلاح ، لم يصبر ....

وأنه لا بأس على العالم أن يشترط على المتعلم أمورا معينة قبل أن يبدأ فى تعليمه .

فقد قال الخضر لموسى : « إن اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا » .

---

(١) تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان جـ ٥ ص ٢٣ للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدى .

٨ – أنه يجوز دفع الضرر الأكبر بارتكاب الضرر الأصغر، فإن خرق السفينة فيه ضرر ولكنه أقل من أخذ الملك لها غصبا، وإن قتل الغلام شر، ولكنه أقل من الشر الذي سيترتب على بقائه. وهو إرهاقه لأبويه، وحملهما على الكفر . . .

كما يجوز للإنسان أن يعمل عملا في ملك غيره بدون إذنه بشرط أن يكون هذا العمل فيه مصلحة لذلك الغير كأن يرى حريقا في دار إنسان فيقدم على إطفائه بدون إذنه، ويدفع ضرر الحريق بضرر أقل منه، فقد خرق الخضر السفينة، لكي تبقى لأصحابها المساكين.

٩ – أن التأني في الأحكام. والتثبت من الأمور، ومحاولة معرفة العلل والأسباب . . . كل ذلك يؤدي إلى صحة الحكم، وإلى سلامة القول والعمل.

وصدق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حيث يقول: «رحمة الله علينا وعلى موسى، لو صبر على صاحبه لرأى العجب».

١٠ – أن من دأب العقلاء الصالحين. استعمال الأدب مع الله - تعالى - في التعبير، فالخضر قد أضاف خرقه السفينة إلى نفسه فقال: «فأردت أن أعيبها ...»، وأضاف الخير الذي فعله من أجل الغلامين اليتيمين إلى الله فقال: «فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك»:

وشبيه بهذا ما حكاه الله - تعالى - عن صالحي الجن في قولهم: «وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض، أم أراد بهم ربهم رشدا».

١١ – قال القرطبي: قوله - تعالى - «يريد أن ينقض» أي: قرب أن يسقط. وهذا مجاز وتوسع.

وقد فسره في الحديث بقوله «مائل» فكان فيه دليل على وجود المجاز في القرآن، وهو مذهب الجمهور.

وجميع الأفعال التي حقها أن تكون للحي الناطق إذا أسندت إلى جماد أو بهيمة، فإنما هي استعارة.

أى : لو كان مكانها إنسان لكان ممتثلا لذلك الفعل ، وهذا فى كلام العرب وأشعارها كثير ، كقول الأعشى :

أتنتهون ولا ينهى ذوى شطط كالطعن يذهب فيه الزيت والفتل

والشطط : الجور والظلم ، يقول : لا ينهى الظالم عن ظلمه إلا الطعن العميق الذى يغيب فيه الفتل - فأضاف النهى إلى الطعن . . .

وذهب قوم إلى منع المجاز فى القرآن . . فإن كلام الله عز وجل - وكلام رسوله - صلى الله عليه وسلم - حمله على الحقيقة أولى بذى الفضل والدين، لأنه يقص الحق كما أخبر الله - تعالى - فى كتابه . . »[1] :

وقد صرح صاحب أضواء البيان أنه لا مجاز فى القرآن فقال ما ملخصه : قوله - تعالى - : « فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه . . . »

هذه الآية من أكبر الأدلة التى يستدل بها القائلون : بأن المجاز فى القرآن ، زاعمين أن إرادة الجدار الانقضاض لا يمكن أن تكون حقيقة وإنما هى مجاز.

وقد دلت آيات من كتاب الله على أنه لا مانع من أن تكون إرادة الجدار حقيقة ، لأن الله - تعالى - يعلم للجمادات إرادات وأفعالا وأقوالا لا يدركها الخلق، كما صرح - تعالى - وبأنه يعلم من ذلك ما لا يعلمه خلقه فى قوله - سبحانه - « وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم . . . »

فصرح بأننا لا نفقه تسبيحهم وتسبيحهم واقع عن إرادة لهم يعلمها - سبحانه - ونحن لا نعلمها . . .

ومن الأحاديث الدالة على ذلك ما ثبت فى صحيح مسلم أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : « إنى لأعرف حجرا كان يسلم على بمكة » . وما ثبت فى صحيح البخارى من حنين الجزع الذى كان يخطب عليه - صلى الله عليه وسلم - حزنا لفراقه .

---

(١) راجع تفسير القرطبى ج ١١ ص ٢٥ :

فتسليم ذلك الحجر ، وحنين ذلك الجزع ، كلاهما بإرادة وإدراك يعلمه الله ونحن لا نعلمه ... »[1] .

١٢ — أن صلاح الآباء ينفع الأبناء . بدليل قوله - تعالى - : « وكان أبوهما صالحا ... » .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : فيه دليل على أن الرجل الصالح يحفظ فى ذريته وتشمل بركة عبادته ما ينفعهم فى الدنيا والآخرة ، بشفاعته فيهم ، ورفع درجتهم إلى أعلى درجة فى الجنة لتقر عينه بهم ، كما جاء فى القرآن ووردت السنة به .

قال سعيد بن جبير عن ابن عباس : حفظا بصلاح أبيهما .. « .

١٣ — أن على الصاحب أن لا يفارق صاحبه حتى يبين له الأسباب التى حملته على ذلك ، فأنت ترى أن الخضر قد قال لموسى : « هذا فراق بينى وبينك ، سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا »[2] أى : قبل مفارقتى لك سأخبرك عن الأسباب التى حملتنى على فعل ما فعلت مما لم تستطع معه صبرا .

ويفهم من ذلك أن موافقة الصاحب لصاحبه - فى غير معصية الله - تعالى - على رأس الأسباب التى تعين على دوام الصحبة وتقويتها ، كما أن عدم الموافقة ، وكثرة المخالفة ، تؤدى إلى المقاطعة ...

كما يفهم من ذلك - أيضاً - أن المناقشة والمحاورة متى كان الغرض منها الوصول إلى الحق ، وإلى المزيد من العلم ، وكانت بأسلوب مهذب ، وبنية طيبة ، لا تؤثر فى دوام المحبة والصداقة ، بل تزيدهما قوة وشدة ...

نسأل الله - تعالى - أن يؤدبنا بأدبه ، وأن يجعل القرآن ربيع قلوبنا ، وأنس نفوسنا ....

ثم ساق - سبحانه - قصة ذى القرنين ، وهى القصة الرابعة والأخيرة فى السورة فقد سبقتها قصة أصحاب الكهف ، وقصة صاحب الجنتين وقصة موسى والخضر .

(١) راجع أضواء البيان فى إيضاح القرآن بالقرآن ج ٤ ص ٧٨ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ١٨٣ .

استمع إلى القرآن الكريم وهو يقص علينا بأسلوبه البليغ المؤثر خبر ذي القرنين فيقول :

« ويسألونَكَ عن ذِي القَرْنَيْنِ ، قلْ سأَتلُو عليكُم مِنْهُ ذِكْراً (٨٣) إنا مكَّنَّا لهُ فى الأرضِ وآتَيْنَاه من كلِّ شيء سبباً (٨٤) فأتْبَع سبباً (٨٥) حتى إذَا بلَغ مغربَ الشمسِ وجدَها تَغْرُبُ فى عَيْنٍ حَمِئَة ووجد عِندَها قوماً ، قلْنَا ياذَا القرنَيْنِ إمَّا أنْ تعذِّبَ وإمَّا أنْ تتَّخِذ فيهمْ حُسْناً (٨٦) قالَ أمَّا من ظلَمَ فسَوْف نعذِّبه ثم يُرَدُّ إلى ربِّه فيعذِّبُه عذاباً نُكْراً (٨٧) وأمَّا من آمنَ وعمِل صالحاً فلَهُ جزاءً الْحُسنَى وسنقولُ لهُ من أمْرِنَا يُسْراً (٨٨) ثم أتبعَ سبباً (٨٩) حتَّى إذا بلَغَ مَطْلِعَ الشَّمسِ وجدهاَ تَطْلُعُ على قوم لم نَجْعَل لهُم من دونِها سِتْراً (٩٠) كذلكَ وقَدْ أحطْنَا بما لدَيْهِ خُبْراً (٩١) ثم أتْبَعَ سبباً (٩٢) حتى إذا بلغَ بيْنَ السَّدَّيْنِ وجَد مِنْ دُونِهما قوماً لاَ يكادُونَ يَفْقَهُونَ قَولاً (٩٣) قالُوا ياذَا القرنَينِ إنْ يأجوجَ ومأجُوجَ مُفْسِدونَ فى الأرضِ فهلْ نجعلُ لكَ خَرْجًا على أنْ تجعلَ بيننَاَ وبينَهم سَدًّا (٩٤) قالَ ماَ مَكَّنِّى فيه رَبى خيرٌ فأعينُونى بقُوةٍ أجعَلْ بينكُم وبينَهم رَدْمًا (٩٥) آتونى زُبر الحديدِ حتَّى إذا ساوَى بينَ الصَّدفَينِ قالَ انفخُوا حتَّى إذا جَعَلَهُ ناراً قالَ آتونى أُفْرِغْ عليْهِ قِطراً (٩٦) فما اسطاعوا أن يظهَرُوه وما استطاعُوا له نَقْبًا (٩٧) قالَ هذَا رحمةٌ من ربي فإذا جاء وعدُ ربى جَعَلَهُ دكاء وكانَ وَعْدُ ربى حقًّا (٩٨) » .

وقوله ـ سبحانه ـ : « ويسألونك عن ذي القرنين . . . » معطوف على قصة موسى والخضر ـ عليهما السلام ـ عطف القصة على القصة .

قال البقاعي : كانت قصة موسى مع الخضر مشتملة على الرحلات من أجل العلم ، وكانت قصة ذي القرنين مشتملة على الرحلات من أجل الجهاد في سبيل الله ، ولما كان العلم أساس الجهاد تقدمت قصة موسى والخضر على قصة ذي القرنين . . » (١) .

والسائلون هم كفار قريش بتلقين من اليهود ، فقد سبق أن ذكرنا عند تفسيرنا لقصة أصحاب الكهف . أن اليهود قالوا لوفد قريش : سلوه ـ أي الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن ثلاث نأمركم بهن . . سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ماذا كان من أمرهم . . . وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها . . . وسلوه الروح .

وجاء التعبير بصيغة المضارع — مع أن الآيات نزلت بعد سؤالهم — لاستحضار الصورة الماضية ، أو للدلالة على أنهم إستمروا في لجاجهم إلى أن نزلت الآيات التي ترد عليهم .

أما ذو القرنين ، فقد إختلفت في شأنه أقوال المفسرين إختلافا كبيرا ، لعل أقربها إلى الصواب ما أشار إليه الآلوسي بقوله : وذكر أبو الريحان البيروني في كتابه المسمى « بالآثار الباقية عن القرون الخالية ، أن ذا القرنين هو أبو كريب الحميري ، وهو الذي : إفتخر به تبع اليماني حيث قال :

قد كان ذو القرنين جدي مسلما ملكا علا في الأرض غير مفند
بلغ المغارب والمشارق يبتغي أسباب ملك من حكيم مرشد

ثم قال أبو الريحان: ويشبه أن يكون هذا القول أقرب ، لأن ملوك اليمن كانوا يلقبون بكلمة ذي . كذي نواس ، وذي يزن . ألخ . (٢) .

(١) نظم الدرر للبقاعي ج ١٢ ص ١٢٨ .
(٢) تفسير الآلوسي ج ١٦ ص ٢٧ .

ومن المقطوع به أن ذا القرنين هـذا : ليس هو الإسكندر المقدونى الملقب بذى القرنين . تلميذ أرسطو، فإن الاسكندرهذا كان وثنيا .. بخلاف ذى القرنين الذى تحدث عنه القرآن ، فإنه كان مؤمنا بالله - تعالى - ومعتقدا بصحة البعث والحساب .

والرأى الراجح أنه كان عبدا صالحا ، ولم يكن نبيا .

ويرى بعضهم أنه كان بعد موسى - عليه السلام -،ويرى آخرون غير ذلك

ومن المعروف أن القرآن الكريم يهتم فى قصصه ببيان العبر والعظات المستفادة من القصة ، لا ببيان الزمان أو المكان للأشخاص .

وسمى بذى القرنين - على الراضح - لبلوغه فى فتوحاته قرنى الشمس من أقصى المشرق والمغرب .

والمعنى : ويسألك قومك - يا محمد - عن خبر ذى القرنين وشأنه .

« قل » لهم - على سبيل التعليم والرد على تحديهم لك - « سأتلو عليكم منه ذكرا » .

والضمير فى « منه » يعود على ذى القرنين ، و « من » للتبعيض .

أى : قل لهم : سأتلو عليكم من خبره . وسأقص عليكم من أنبائه عن طريق هـذا القرآن الذى أوحاه الله إلى ما يفيدكم ويكون فيه ذكرى وعبرة لكم إن كنتم تعقلون .

ثم بين - سبحانه - ما أعطاه الله لذى القرنين من نعم فقال : « إنا مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شىء سببا . فأتبع سببا » .

وقوله : « مكنا » من التمكين بمعنى إعطائه الوسائل التى جعلته صاحب نفوذ وسلطان فى أقطار الأرض المختلفة . والمفعول محذوف ، أى : إنامكنا له أمره من التصرف فيها كيف يشاء . بأن أعطيناه سلطانا وطيد الدعائم ، وآتيناه من كل شىء أراده فى دنياه لتقوية ملكه « سببا » أى . سبيلا وطريقا يوصله إلى مقصوده ، كآلات السير، وكثرة الجند ، ووسائل البناء والعمران

وهذه الأسباب التى أعطاها الله إياه ، لم يرد حديث صحيح بتفصيلها ، فعلينا أن نؤمن بأن الله ـ تعالى ـ قد أعطاه وسائل عظيمة لتدعيم ملكه ، دون أن نلتفت إلى ما ذكره هنا بعض المفسرين من إسرائيليات لاقيمة لها .

والفاء فى قوله « فأتبع سببا » فصيحة . أى : فأراد أن يزيد فى تدعيم ملكه ، فسلك طريقا لكى يوصله إلى المكان الذى تغرب فيه الشمس .

« حتى إذا بلغ مغرب الشمس » أى حتى إذا وصل إلى منتهى الأرض المعمورة فى زمنه من جهة المغرب .

« وجدها تغرب فى عين حمئة » أى : رآها فى نظره عند غروبها ، كأنها تغرب فى عين مظلمة ، وإن لم تكن هى الحقيقة كذلك .

وهذا هو المعتاد لمن كان بينه وبين أفق الشمس ماء ، فإنه يراها كأنها تشرق منه وتغرب فيه ، كما أن الذى يكون فى أرض ملساء واسعة ، يراها كأنها تطلع من الأرض وتغيب فيها .

وحمئة : أى : ذات حمأة وهى الطين الأسود . يقال : حمأت البئر تحمأ حماً ، إذا صارت فيها الحمأة وهى الطينه السوداء .

وقرأ ابن عامر ، وحمزة ، والكسائى : وجدها تغرب فى عين حامية أى : حارة . إسم فاعل من حمى يحمى حميا .

« ووجد عندها قوما » أى : ووجد عند تلك العين على ساحل البحر قوما .

الظاهر أن هؤلاء القوم كانوا من أهل الفترة ، فدعاهم ذو القرنين إلى عبادة الله ـ تعالى ـ وحده ، فمنهم من آمن ومنهم من كفر ، فخيره الله ـ تعالى ـ فيهم فقال : « قلنا ياذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا » .

أى : قال الله ـ تعالى ـ له عن طريق الالهام ، أو على لسان ملك أخبره بذلك : ياذا القرنين إما أن تعذب هؤلاء القوم الكافرين أو الفاسقين بالقتل أو غيره ، وإما أن تتخذ فيهم أمرا ذا حسن ، أو أمرا حسنا ، تقتضيه المصلحة والسياسة الشرعية .

ثم حكى الله - تعالى - عنه فى الجواب ما يدل على سلامة تفكيره ، فقال :
« قال أما من ظلم . . . » أى : قال ذو القرنين فى الرد على تخيير ربه له فى شأن هؤلاء القوم ، يارب : « أما من ظلم نفسه بالاصرار على الكفر والفسوق والعصيان « فسوف نعذبه » فى هذه الدنيا بالقتل ومايشبهه . ثم يرد هذا الظالم لنفسه إلى ربه - سبحانه - فيعذبه فى الآخرة عذابا « نكرا » أى : عذابا فظيعا عظيما منكرا وهو عذاب جهنم .

« وأما من آمن وعمل صالحا » يقتضيه إيمانه « فله » فى الدارين « جزاء الحسنى » أى : فله المثوبة الحسنى ، أو الفعلة الحسنى وهى الجنة .

« وسنقول له » أى لمن آمن وعمل صالحا « من أمرنا » أى مما نأمره به قولا « يسرا » لاصعوبة فيه ولا مشقة ولا عسر .

فأنت ترى أن ذا القرنين قد رد بما يدل على أنه قد إتبع فى حكمه الطريق القويم ، والأسلوب الحكيم ، الذى يدل على قوة الإيمان ، وصدق اليقين ، وطهارة النفس .

إنه بالنسبة للظالمين ، يعذب ، ويقتص ، ويرهب النفوس المنحرفة ، حتى تعود إلى رشادها ، وتقف عند حدودها .

وبالنسبة للمؤمنين الصالحين ، يقابل إحسانهم بإحسان وصلاحهم بصلاح وإستقامتهم بالتكريم والقول الطيب ، والجزاء الحسن .

وهكذا الحاكم الصالح فى كل زمان ومكان : الظالمون والمعتدون . . . . يجدون منه كل شدة تردعهم وتزجرهم وتوقفهم عند حدودهم .

والمؤمنون والمصلحون يجدون منه كل تكريم وإحسان وإحترام وقول طيب .

وقوله : « ثم أتبع سببا » بيان لما فعله بعد أن بلغ مغرب الشمس .

أى : وبعد أن بلغ مغرب الشمس ، ونال مقصده ، كر راجعا من جهة غروب الشمس إلى جهة شروقها .

« حتى إذا بلغ مطلع الشمس » أى: حتى إذا كر راجعا وبلغ منتهى الأرض المعمورة فى زمنه من جهة المشرق .

« وجدها » أى الشمس « تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا » أى: لم نجعل لهم من دون الشمس ما يستترون به من البناء أو اللباس ، فهم قوم عراة يسكنون الأسراب والكهوف فى نهاية المعمورة من جهة المشرق .

وقوله : « كذلك » خبر لمبتدأ محذوف ، أى : أمر ذى القرنين كذلك من حيث إنه آتاه الله من كل شىء سببا ، فبلغ ملك مشارق الأرض ومغاربها .

وقوله « وقد أحطنا بما لديه خبرا » بيان لشمول علم الله - تعالى - بأحوال ذى القرنين الظاهرة والباطنة ولأحوال غيره .

أى : كذلك كان شأن ذى القرنين . وقد أحطنا إحاطة تامة وعلمنا علما لا يعزب عنه شىء ، بما كان لدى ذى القرنين من جنود وقوة وآلات ... وغير ذلك من أسباب الملك والسلطان .

وقوله - سبحانه - : « ثم اتبع سببا » بيان لما فعله بعد أن بلغ مغرب الشمس ومشرقها ،

أى : ثم بعد أن بلغ مغرب الشمس ومغربها ... سار فى طريق ثالث معترض بين المشرق والمغرب ، آخذا فيه « حتى إذا بلغ » فى مسيره ذلك « بين السدين » أى : الجبلين ، وسمى الجبل سدا ، لأنه سد فجا من الأرض .

قالوا : والسدان هما جبلان من جهة أرمينية وأذربيجان ، وقيل هما فى نهاية أرض الترك مما يلى المشرق :

« وجد من دونهما » أى : من دون السدين من ورائهما « قوما » أى : أمة من الناس لغتهم لا تكاد تعرف لبعدهم عن بقية الناس ، ولذا قال - سبحانه - .

« لا يكادون يفقهون قولا » أي : لا يكاد هؤلاء القوم يفهمون أو يقربون مايقوله الناس لهم ، لغرابة لغتهم وقلة فطنتهم ، ولا يعرف الناس - أيضا - ما يقوله هؤلاء القوم لهم ، لشدة عجمتهم .

« قالوا » أي : هؤلاء القوم لذى القرنين : « ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض » .

ويأجوج ومأجوج اسمان أعجميان ، قيل : مأخوذان من الأوجة وهى الاختلاط أو شدة الحر ، وقيل : من الأوج وهو سرعة الجرى .

واختلف فى نسبهم ، فقيل : هم من يافث بن نوح والترك منهم . وقيل : يأجوج من الترك ، ومأجوج من الديلم

أى : هؤلاء القوم الذين لا يكادون يفقهون قولا قالوا لذى القرنين ، بعد أن توسموا فيه القوة والصلاح . . ياذا القرنين إن قبيلة يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض بشتى أنواع الفساد والنهب والسلب .

وفى الصحيحين من حديث زينب بنت جحش - رضى الله عنها - قالت : استيقظ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من نومه وهو محمر وجهه وهو يقول : لا إله إلا الله ، ويل للعرب من شر - قد اقترب ، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه ، وحلق - بين أصابعه - قلت : يارسول الله ، أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : نعم إذا كثر الخبث .

وقوله - تعالى - « فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا » حكاية لما عرضه هؤلاء القوم على ذى القرنين من عروض تدل على ثقتهم فيه وحسن أدبهم معه ، حيث خاطبوه بصيغة الاستفهام الدالة على أنهم يفوضون الأمر إليه .

والخرج : اسم لما يخرجه الإنسان من ماله لغيره . وقرأ حمزة والكسائى خراجا وهما بمعنى واحد ، وقيل الخرجة : الجزية . والخراجه : اسم لما يخرجه عن الأرض

أى : فهل نجعل لك مقداراً كبيراً من أموالنا على سبيل الأجر ، لكى تقيم بيننا وبين قبيلة يأجوج ومأجوج سداً يمنعهم من الوصول إلينا، ويحول بيننا وبينهم ؟

وهنا يرد عليهم ذو القرنين - كما حكى القرآن عنه بما يدل على قوة إيمانه وحرصه على إحقاق الحق وإبطال الباطل . فيقول « قال ما مكنى فيه ربى خير ... » .

أى : قال ذو القرنين لهؤلاء القوم الذين لا يكادون يفقهون قولا : إن ما بسطه الله - تعالى - لى من الرزق والمال والقوة .. خير من خروجكم وما لكم الذى تريدون أن تجعلوه لى فى إقامة السد بينكم وبين يأجوج ومأجوج ، فوفروا عليكم أموالكم ، وقفوا إلى جانبى « فأعينونى » بسواعدكم وبآلات البناء « بقوة » أى : بكل ما أتقوى به على المقصود وهو بناء السد ، لكى « أجعل بينكم » وبين يأجوج ومأجوج « ردما » .

أى : حاجزاً حصينا ، وجدارا متينا ، يحول بينكم وبينهم .

والردم : الشىء الذى يوضع بعضه فوق بعض حتى يتصل ويتلاصق . يقال : ثوب مردم ، أى : فيه رقاع فوق رقاع . وسحاب مردم ، أى : متكاثف بعضه فوق بعض . ويقال : ردمت الحفرة ، إذا وضعت فيها من الحجارة والتراب وغيرهما ما يسويها بالأرض .

قال ابن عباس : الردم أشد الحجاب .

وجملة « أجعل بينكم وبينهم ردما » جواب الأمر فى قوله : « فأعينونى بقوة » .

ثم شرع فى تنفيذ ما راموه منه من عون فقال لهم : « آتونى زبر الحديد ... » .

والزبر - كالغرف - جمع زبرة - كغرفة - وهى القطعة الكبيرة من الحديد

وأصل الزبر . الإجتماع ومنه زبرة الأسد لما إجتمع من الشعر على كاهله . ويقال : زبرت الكتاب أي كتبته وجمعت حروفه .

أي : أحضروا لى الكثير من قطع الحديد الكبيره ، فأحضروا له ما أراد « حتى إذا ساوى بين الصدفين » اى جانبى الجبلين . وسمى كل واحد من الجانبين صدفا . لكونه مصادفا ومقابلا ومحاذيا للآخر ، مأخوذ من قولهم صادفت الرجل : أى : قابلته ولاقيته ، ولذا يقال المفرد صدف حتى يصادفه الآخر ، فهو من الأسماء المتضايفة كالشفع والزوج .

وقوله : قال انفخوا ، أى النار على هذه القطع الكبيرة من الحديد الموضوع بين الصدفين .

وقوله : « حتى إذا جعله نارا » أى : حتى إذا صارت قطع الحديد الكبيرة كالنار فى إحمرارها وشدة توهجها « قال آتونى أفرغ عليه قطرا » أى : نحاسا أو رصاصا مذابا ، وسمى بذلك لأنه إذا أذيب صار يقطر كما يقطر الماء .

أى : قال لهم أحضروا لى قطع الحديد الكبيرة ، فلما أحضروها له ، أخذ يبنى شيئا فشيئا حتى ساوى بين جانبى الجبلين بقطع الحديد ، قال لهم : أوقدوا النار وانفخوا فيها بالكيران وما يشبهها لتسخين هذه القطع من الحديد وتليينها ، ففعلوا ما أمرهم به ، حتى صارت تلك القطع تشبه النار فى حرارتها وهيئتها ، قال أحضروا لى نحاسا مذابا ، لكى أفرغه على تلك القطع من الحديد لتزداد صلابة ومتانة وقوة .

وبذلك يكون ذو القرنين قد لبى دعوة أولئك القوم فى بناء السد . وبناه لهم بطريقة محكمة سليمة ، إهتدى بها العقلاء فى تقوية الحديد والمبانى فى العصر الحديث .

وكان الداعى له لهذا العمل الضخم ، الحيلولة بين هؤلاء القوم ، وبين يأجوج ومأجوج الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون

ولقد أخبر القرآن الكريم بأن ذا القرنين بهذا العمل جعل يأجوج ومأجوج يقفون عاجزين أمام هذا السد الضخم المحكم فقال : « فما اسطاعوا أن يظهروه ، وما استطاعوا له نقبا » .

أي : فما استطاع قوم يأجوج ومأجوج أن يرتفعوا على ظهر السد ، أو يرقوا فوقه لملاسته وارتفاعه ، وما استطاعوا ـ أيضاً ـ أن يحدثوا فيه نقبا أو خرقا لصلابته ومتانته وثخانته .

ووقف ذو القرنين أمام هذا العمل العظيم ، مظهرا الشكر لله ـ تعالى ـ ، والعجز أمام قدرته ـ عز وجل ـ شأن الحكام الصادقين فى إيمانهم ، الشاكرين لخالقهم توفيقه إياهم لكل خير ...

وقف ليقول بكل تواضع وخضوع لخالقه ...: «هذا رحمة من ربي» أي : هذا الذى فعلته من بناء السد وغيره ، أثر من آثار رحمة ربى التى وسعت كل شيء .

« فإذا جاء وعد ربى » الذى حدده لفناء هذه الدنيا ونهايتها ، أو الذى حدده لخروجهم منه « جعله دكاء » أي: جعل هذا السد أرضا مستوية، وصيره مدكوكا أي : بمساواة الأرض . ومنه قولهم : ناقة دكاء أي : لاسنام لها .

« وكان وعد ربى حقا » أي : وكان كل ما وعد الله ـ تعالى ـ به عباده من ثواب وعقاب وغيرهما ، وعدا حقا لا يتخلف ولا يتبدل ، كما قال ـ سبحانه ـ : « وعد الله لا يخلف الله وعده . ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

وبذلك نرى فى قصة ذى القرنين ما نرى من الدروس والعبر والعظات ، التى من أبرزها . أن التمكين فى الارض نعمة يهبها الله لمن يشاء من عباده . وأن السير فى الأرض لإحقاق الحق وإبطال الباطل من صفات المؤمنين الصادقين ، وأن الحاكم العادل من صفاته : ردع الظالمين عن ظلمهم ،

والإحسان إلى المستقيمين المقسطين ، والعمل على ما يجعلهم يزدادون استقامة وفضلا ، وأن من معالم الخلق الكريم ، أن يعين الإنسان المحتاج إلى عونه ، وأن يقدم له ما يصونه عن الوقوع تحت وطأة الظالمين المفسدين ، وأن من الأفضل أن يحتسب ذلك عند الله - تعالى - . وأن لا يطلب من المحتاج إلى عونه أكثر من طاقته . . .

كما أن من أبرز صفات المؤمنين الصادقين : أنهم ينسبون كل فضل إلى الله - تعالى - وإلى قدرته النافذة ، وأنهم يزدادون شكرا وحمدا له - تعالى - كلما زادهم من فضله ، وما أجمل وأحكم أن تختتم قصة ذى القرنين بقوله - تعالى - : « قال هذا رحمة من ربى ، فإذا جاء وعد ربى جعله دكا وكان وعد ربى حقا » .

* * *

ثم تسوق السورة الكريمة بعد قصة ذى القرنين آيات تذكر الناس بأهوال يوم القيامة ، لعلهم يتدبرون ويتذكرون . . .

استمع إلى السورة الكريمة وهى تصور ذلك فتقول :

« وَتَرَكْنَا بعضَهُم يَوْمَئذٍ يموجُ فى بَعْضٍ ، ونُفِخَ فى الصُّورِ فَجَمعْنَاهُمْ جَمْعاً (٩٩) وعرَضْنَا جهنَّم يَوْمئذٍ للكافِرِينَ عَرْضاً (١٠٠) الذينَ كانَتْ أعينُهُم فى غِطاءٍ عن ذِكْرِى وكانوا لا يَسْتَطِيعُونَ سمعاً (١٠١) أفَحَسِبَ الذين كفرُوا ، أنْ يتَّخِذُوا عبادِى من دُونى أوْلِيَاءَ ، إنا أعْتَدْنَا جهنَّم للكافِرِينَ نُزُلاً (١٠٢) » .

وقوله : « وتركنا » بمعنى جعلنا وصيرنا ، والضمير المضاف فى قوله

(بعضهم) يعود إلى يأجوج ومأجوج . والمراد (بيومئذ) : يوم تمام بناء السد الذى بناه ذو القرنين .

وقوله - سبحانه - (يموج) من الموج بمعنى الاضطراب والاختلاط يقال : ماج البحر إذا اضطرب موجه وهاج واختلط . ويقال : ماج القوم إذا اختلط بعضهم ببعض وتزاحموا حائرين فزعين .

والمعنى وجعلنا وصيرنا بمقتضى حكمتنا وإرادتنا وقدرتنا، قبائل يأجوج ومأجوج يموج بعضهم فى بعض . أى : تتزاحمون ويضطربون من شدة الحيرة لأنهم بعد بناء السد ، صاروا لا يجدون مكانا ينفذون منه إلى ما يريدون النفاذ إليه ، فهم خلفه فى إضطراب وهرج .

ويجوز أن يكون المراد بيومئذ : يوم مجىء الوعد بخروجهم وإنتشارهم فى الأرض ، وهذا الوعد قد صرحت به الآية السابقة فى قوله - تعالى - (فاذا جاء وعد ربه جعله دكاء وكان وعد ربى حقا) .

فيكون المعنى : وتركنا قبائل يأجوج ومأجوج، يوم جاء وعدالله بجعل السد مدكوكا ومتساويا مع الأرض، يموج بعضهم فى بعض ، بعدأن خرجوا منتشرين فى الأرض ، وقد تزاحموا وتكاثروا وإختلط بعضهم ببعض .

قال الفخر الرازى : أعلم أن الضمير فى قوله (بعضهم) يعود إلى يأجوج ومأجوج . وقوله : (يومئذ) فيه وجوه : الأول : أن يوم السد ماج بعضهم فى بعض خلفه لما منعوا من الخروج . الثانى: أنه عند الخروج يموج بعضهم فى بعض . قيل:إنهم حين يخرجون من وراء السد يخرجون مزدحمين فى البلاد الثالث : أن المراد من قوله (يومئذ) يوم القيامة .

وكل ذلك محتمل ، إلا أن الأقرب أن المراد به : الوقت الذى جعل الله فيه السد دكا فعنده ماج بعضهم ونفخ فى الصور ، وصار ذلك من

آيات القيامة »(١) .

وقال القرطبى : قوله - تعالى - : « وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض » الضمير فى « تركنا » لله - تعالى - أى : « وتركنا الجن والإنس يوم القيامة يموج بعضهم فى بعض .

وقيل : تركنا يأجوج ومأجوج « يومئذ » أى : يوم كمال السد يموج بعضهم فى بعض . وإستعارة الموج لهم عبارة عن الحيرة وتردد بعضهم فى بعض . . .

وقيل : تركنا يأجوج ومأجوج يوم إنفتاح السد يموجون فى الدنيا مختلطين لكثرتهم . فهذه أقوال ثلاثة : أظهرها اوسطها وأبعدها آخرها . وحسن الأول ، لأنه تقدم ذكر القيامة فى تأويل قوله - تعالى - « فإذا جاء وعد ربى »(٢) .

وقوله - سبحانه - ، « ونفخ فى الصور فجمعناهم جمعا » بيان لعلامة من علامات قيام الساعة .

والنفخ لغة : إخراج النفس من الفم لإحداث صوت معين . والصور : القرن الذى ينفخ فيه إسرافيل - عليه السلام - نفخه الصعق والموت ، ونفخة البعث والنشور كما قال - تعالى - : « ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون»(٣).

والمعنى : وتركنا يأجوج ومأجوج يموج بعضهم فى بعض . وأمرنا إسرافيل بالنفخ فى الصور ، فجمعناهم وجمع الخلائق جمعا تاما، دون أن نترك أحدا من الخلائق بدون إعادة إلى الحياة ، بل الكل مجموعون ليوم عظيم هو يوم البعث والحساب .

---

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٢١ ص ١٧٢ .

(٢) تفسير القرطبى ج ١١ ص ٦٥ .

(٣) سورة الزمر الاية ٦٨ .

والمراد بالنفخ هنا : النفخة الثانية التى يقوم الناس بعدها من قبورهم للحساب ، كما أشارت إلى ذلك آية سورة الزمر السابقة .

وفى التعبير بقوله : « فجمعناهم جمعا » . إشعار بأن هذا الجمع تام كامل ، لأن كلمة « جمعا » مؤكدة لجملة جمعناهم . أى : جمعناهم جمعا تاما كاملا لا يشذ عنه أحد ، ولا يفلت منه مخلوق ، كما قال - سبحانه - : « قل إن الأولين والآخرين لمجموعون . إلى ميقات يوم معلوم » .

هذا ، وهنا مسألة تكلم عنها العلماء ، وهى وقت خروج يأجوج ومأجوج .

فمنهم من يرى أنه لا مانع من أن يكونوا قد خرجوا ، بدليل ما جاء فى الحديث الصحيح من أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قال : ويل للعرب من شر قد اقترب . فتح اليوم من سد يأجوج ومأجوج مثل هذا ، وحلق بين أصابعه .

ولأن الآيات الكريمة تقول : فإذا جاء وعد ربى جعله دكاء ... ، ووعد الله لا مانع من أن يكون قد أتى .

قال الشيخ القاسمى : والغالب أن المراد بخروجهم هذا خروج المغول التتار . وهم من نسل يأجوج ومأجوج . وهو الغزو الذى حصل منهم للأمم فى القرن السابع الهجرى . وناهيك بما عملوه إذ ذاك فى الأرض من فساد ... » [١] .

وقال الشيخ المراغى عند تفسير قوله - تعالى - : « وكان وعد ربى حقا » وقد جاء وعده - تعالى - بخروج جنكيز خان وسلائله فعاثوا فى الأرض فساداً ... وأزالوا معالم الخلافة من بغداد ... » [٢] .

وقال صاحب الظلال : « وبعد ، فمن يأجوج ومأجوج ؟ وأين هم الآن ؟ وماذا كان من أمرهم وماذا سيكون ؟

---

(١) تفسير القاسمى ج ١١ ص ٤١٣١ .

(٢) تفسير المراغى ج ١٦ ص ٢٠ .

كل هذه أسئلة تصعب الإجابة عليها على وجه التحقيق، فنحن لا نعرف عنهم إلا ما ورد فى القرآن، وفى بعض الأثر الصحيح.

والقرآن يذكر فى هذا الموضع ما حكاه من قول ذى القرنين: «فإذا جاء وعد ربى جعله دكاء وكان وعد ربى حقا».

وهذا النص لا يحدد زمانا ووعد الله بمعنى وعده بدك السد، ربما يكون قد جاء منذ أن هجم التتار وانساحوا فى الأرض. ودمروا الممالك تدميرا.

وفى موضع آخر من سوره الأنبياء: «حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون واقترب الوعد الحق ....».

وهذا النص - أيضا - لا يحدد زمانا معينا لخروجهم، فاقتراب الوعد الحق، بمعنى اقتراب الساعة قد وقع منذ زمن الرسول - صلى الله عليه وسلم - فقد جاء فى القرآن: «اقتربت الساعة وانشق القمر» والزمان فى الحساب الإلهى غيره فى حساب البشر، فقد تمر بين اقتراب الساعة ووقوعها ملايين السنين أو القرون.

وإذا فمن الجائز أن يكون السد قد فتح ما بين: «اقتربت الساعة» ويومنا هذا. وتكون غارات المغول والتتار التى اجتاحت الشرق، هى انسياح يأجوج ومأجوج ... وكل ما نقوله ترجيح لا يقين[1].

هذه بعض حجج القائلين بأنه لا مانع من أن يكون يأجوج ومأجوج قد خرجوا ...

وهناك فريق آخر من العلماء، يرون أن يأجوج ومأجوج لم يخرجوا بعد، وأن خروجهم إنما يكون قرب قيام الساعة.

ومن العلماء الذين أيدوا ذلك صاحب أضواء البيان، فقد قال - رحمه الله - ما ملخصه:

---

(١) فى ظلال القرطبى ج ١٦ ص ٢٢٩٣.

أعلم أن هذه الآية : « فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء .... » وآية الأنبياء : « حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج ... » قد دلتا في الجملة على أن السد الذي بناه ذوالقرنين ، دون يأجوج ومأجوج ، إنما يجعله الله دكا عندمجيء الوقت الموعود بذلك فيه . وقددلتا على أنه بقرب يوم القيامة ..لأن المراد بيومئذ في قوله « وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض » أنة يوم مجيء وعـــد ربي بخروجهم وإنتشارهم في الأرض .

وآية الأنبياء تدل في الجملة على ماذكرنا هنا . وذلك يدل على بطلان قول من قال : إنهم « روسيا » وأن السد فتح من زمن طويل .

والإقتراب الذي جاء في قوله ـ تعالى ـ « إقتربت الساعة . . » وفي الحديث « ويل للعرب من شر قد إقترب . . . . » لايستلزم إقترابه من دك السد ، بل يصح إقترابه مع مهلة .

وهذه الآيات لايتم الإستدلال بها على أن يأجوج ومأجوج لم يخرجوا بعد ـ إلا بضميمة الأحاديث النبوية لها .

ومن ذلك مارواه الإمام مسلم فيصحيحه في ذلك ، وفيه : خروج الدجال وبعث عيسى ، وقتله الدجال ... ثم يبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون .

فيتحاز عيسى ومن معه من المؤمنين إلىالطور ... ثم يرسل الله على يأجوج ومأجوح النغف في رقابهم فيموتوا . . . . » .

وهذا الحديث الصحيح قد رأيت فيه تصريح النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن الله يوحى إلى عيسى ابن مريم بخروج يأجوج مأجوج بعد قتله الدجال فمن يدعى أنهم « روسيا » وأن السد قد إندك منذ زمان ، فهو مخالف لما أخبربه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مخالفة صريحة لا وجه لها . ولا شك أن كل خبر يخالف الصادق المصدوق ـ صلى الله عليه وسلم ـ فهو باطل ، لأن نقيض الخبر الصادق ـ كاذب ضرورة كما هو معلوم .

ولم يثبت فى كتاب الله ولا فى سنه نبيه - صلى الله عليه وسلم - شىء يعارض هـذا الحديث الذى رأيت صحة سنده ، ووضوح دلالته على المقصود ... » [١] .

والذى يبدو لنا أن ما ذهب إليه صاحب أضواء البيان ، أقرب إلى الحق والصواب للأسباب التى ذكرها ، ولقرينة تذييل الآيات التى تحدثت عن يأجوج ومأجوج عن أهوال يوم القيامة .

ففى سورة الكهف يقول الله - تعالى - فى أعقاب الحديث عنهم ، وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض ، ونفخ فى الصور فجمعناهم جمعا .

وفى سورة الأنبياء يقول الله - تعالى - : « حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون واقترب الوعد الحق ... » .

وفضلا عن كل ذلك فإن الحديث الذى رواه الإمام مسلم عنهم ، صريح فى أن خروجهم سيكون من علامات الساعة ، والله - تعالى - أعلم .

ثم بين - سبحانه - ما أعده للكافرين من عذاب يوم القيامة فقال : « وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا . الذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعا » .

وقوله : « وعرضنا ... أى : أظهرنا وأبرزنا يقال : عرض القائد جنده إذا أظهرهم ليشاهدهم الناس .

أى : جمعنا الخلائق يوم البعث والنشور جمعا تاما كاملا . وأبرزنا وأظهرنا جهنم فى هذا اليوم للكافرين إبرازا هائلا فظيعا ، حيث يرونها ويشاهدونها بدون لبس أو خفاء ، فيصيبهم ما يصيبهم من رعب وفزع عند مشاهدتها .

---

(١) راجع تفسير أضواء البيان ج ٤ ص ١٨١ وما بعدها للشيخ محمد الأمين الشنقيطى .

وتخصيص العرض بهم، مع أن غيرهم - أيضا - يراها، لأنها ماعرضت إلا من أجلهم، ومن أجل أمثالهم ممن فسقوا عن أمر ربهم.

ويرى بعضهم أن اللام فى «للكافرين» بمعنى على، لأن العرض يتعدى بها قال - تعالى - : «ويوم يعرض الذين كفروا على النار ....» وقال - سبحانه - : «النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ....»

ثم وصفهم - سبحانه - بما يدل على إستحقاقهم دخول النار فقال : الذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى ..»

أى : أبرز جهنم فى هذا اليوم العصيب للكافرين الذين كانت أعينهم فى الدنيا فى «غطاء» كثيف وغشاوة غليظة، «عن ذكرى» أى : عن الانتفاع بالآيات التى تذكرهم بالحق، وتهديهم إلى الرشاد، بسبب استحواذ الشيطان عليهم.

وفى التعبير بقوله : «غطاء» إشعار بأن الحائل والساتر الذى حجب أعينهم عن الابصار، كان حائلا شـــديدا، إذ الغطاء هو الايغطى الشىء ويستره من جميع جوانبه.

والمراد بالذكر : القرآن الكريم، أو ما يشمله ويشمل كل مافى الكون من آيات يؤدى التفكر فيها إلى الايمان بالله - تعالى -.

وقوله : «وكانوا لايستطيعون سمعا» صفة أخرى من صفاتهم الذميمة. أى : وكانوا فى الدنيا - أيضا - لايستطيعون سمعا للحق أو الهدى، بسبب إصرارهم على الباطل، وإيغالهم فى الضلال والعناد، بخلاف الأصم فإنه قد يستطيع السماع إذا صيح به.

قال الآلوسى: فالجملة الكريمة نفى لسماعهم على أتم وجه، ولذا عدل عن: وكانوا صما مع أنه أخصر، لأن المراد أنهم مع ذلك كفاقدى السمع بالكلية وهو مبالغة فى تصوير إعراضهم عن سماع مايرشدهم إلى ماينفعهم بعد تصوير

تعاميهم عن الآيات المشاهدة بالأبصار ... »(١).

ثم يعقب - سبحانه - على هذا الوعيد الشديد للكافرين ، بالتهكم اللاذع لهم فيقول : « أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادى من دونى أولياء .. »

فالإستفهام : للإنكار والتوبيخ . والحسبان : بمعنى الظن .

والمراد بعبادى هنا : الملائكة وعيسى وعزير ومن يشبههم من عباد الله الصالحين ، إذ مثل هذه الاضافة تكون غالبا للتشريف والتكريم .

وفى الآية الكريمة حذف دل عليه المقام .

والتقدير : أفحسب الذين كفروا بى أن يتخذوا عبادى الصالحين آلهة يستنصرون بهم من دونى ، أو يعبدونهم من دونى ، ثم لا أعذبهم - أى هؤلاء الكافرين بى - على هذا الاتخاذ الشديد الشناعة ؟

إن هؤلاء الذين يحسبون ذلك ، قد ضلوا ضلالا بعيدا ، فإنى لابد أن أعذبهم على كفرهم وشركهم .

أو التقدير : أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادى من دونى أولياء ، لكى يشفعوا لهم يوم القيامه ؟ كلا ان يشفعوا لهم بل سيتبرأون منهم ، كما قال - سبحانه - « كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا » .

ثم بين - سبحانه - ضلال هذا الحسبان الباطل فقال : « إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلا » .

والنزل : ما يقدم للضيف عند نزوله ، والقادم عند قدومه ، على سبيل التكريم والترحيب .

أى : إنا إعتدنا جهنم لهؤلاء الكافرين بى ، المتخذين عبادى من دونى أولياء ، لتكون معدة لهم عند قدومهم تكريما لهم .

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٦ ص ٤٥ .

فالجملة الكريمة مسوقة على سبيل التهكم بهم ، والتقريع لهم ، لأن جهنم ليست نزل إكرام للقادم عليها ، بل هى عذاب مهين له .

وشبيه بهذه الجملة قوله - تعالى - : « فبشرهم بعذاب أليم ، وقوله : « وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه » .

ويجوز أن يكون النزل بمعنى المنزل ، أى : إنا هيئنا جهنم للكافرين لتكون مكانا وحيدا لنزولهم فيها ، إذ ليس لهم منزل سواها .

ثم يأمر الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - فى أواخر السورة الكريمة ، بأن يبين للناس من هم الأخسرون أعمالا ، ومن هم الأسوأ عاقبة فيقـــول :

« قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بالأخْسَرِينَ أعمالاً (١٠٣) الذينَ ضَلَّ سَعْيُهم فى الحياةِ الدُّنيا ، وهم يَحْسَبُونَ أنهُم يُحسِنُونَ صُنْعاً (١٠٤) أولئكَ الذين كفَرُوا بآياتِ ربِّهم ولقائِهِ فَحَبِطَتْ أعمالُهُم، فلاَ نقيمُ لهُم يَوْمَ القيامَةِ وزْناً (١٠٥) ذلكَ جزَاؤُهم جَهنَّم بما كفَرُوا ، واتَّخَـــذُوا آياتى ورسُلِى هُزُوا (١٠٦) » .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الكافرين الذين أعجبتهم أعمالهم وتصرفاتهم الباطلة .

قل لهم : ألا تريدون أن أخبركم خبرا هاما، كله الصدق والحق، وأعرفكم عن طريقه من هم الأخسرون أعمالا فى الدنيا والآخرة ؟

وجاء هذا الإخبار فى صورة الاستفهام لزيادة التهكم بهم ، وللفت أنظارهم إلى ماسيلقى عليهم .

والأخسرون : جمع أخسر ، صيغة تفضيل من الخسران ، وأصله نقص مال التاجر .

والمراد به هنا : خسران أعمالهم وضياعها بسبب إصرارهم على كفرهم .

وجمع الأعمال ، للإشعار بتنوعها ، وشمول الخسران لجميع أنواعها .

وقوله - سبحانه - « الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » .

جواب عن السؤال الذى اشتملت عليه الآية السابقة وهى : « قل هل أنبئكم .... » .

فكأنه قيل : نبئنا عن هؤلاء الأخسرين أعمالا ؟

فكان الجواب : « هم الذين ضل سعيهم » ، أى بطل وضاع بالكلية سعيهم وعملوا فى هـــذه الحياة الدنيا بسبب إصرارهم على كفرهم وشركهم ، فالجملة الكريمة خبر لمبتدأ محذوف .

وقوله « وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » أى : والحال أنهم يظنون أنهم يقدمون الأعمال الحسنة التى تنفعهم .

فالجملة الكريمة حال من فاعل « ضل » أى : ضل وبطل سعيهم ، والحال أنهم يظنون العكس . كما قال - تعالى - : « أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا .... » .

وهذا هو الجهل المركب بعينه ، لأن الذى يعمل السوء ويعلم أنه سوء قد ترجى استقامته . أما الذى يعمل السوء ويظنه عملا حسنا فهـذا هو الضلال المبين .

والتحقيق أن المراد بالأخسرين أعمالا هنا : مايشمل المشركين واليهود والنصارى ، وغيرهم ممن يعتقدون أن كفرهم وضلالهم صواب وحق .

وقوله - سبحانه - : « أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم ... » .

كلام مستأنف لزيادة التعريف بهؤلاء الأخسرين أعمالا ، ولبيان سوء مصيرهم .

أى : أولئك الذين كفروا بآيات ربهم الدالة على وحدانيته وقدرته وكفروا بالبعث والحشر والحساب وما يتبع ذلك من ثواب وعقاب، فكانت نتيجة هذا الكفر أن « حبطت أعمالهم » أى : فسدت وبطلت .

وأصل الحبوط : انتفاخ بطن الدابة بسبب امتلائها بالغذاء الفاسد الذى يؤدى إلى هلاكها .

والتعبير بالحبوط هنا فى أعلى درجات البلاغة، لأن هؤلاء الكافرين ملأوا صحائف أعمالهم بالأقوال والأفعال النتيجة التى ظنوها حسنة، فترتب على ذلك هلاكهم وسوء مصيرهم .

وقوله : « فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا » تصريح بهوانهم والاستخفاف بهم ، واحتقار شأنهم .

أى : فلا نلتفت إليهم يوم القيامة، ولا نعبأ بهم احتقارا لهم، بل نزدريهم ولا نقيم لهم ولا لأعمالهم وزنا ، لأنهم لا توجد لهم أعمال صالحة توضع فى ميزانهم ، كما قال تعالى - : « وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا »

وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : إنه ليأتى الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة وقال : اقرؤا إن شئتم قوله تعالى - : « فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا » .

ثم ختم - سبحانه - الآيات الكريمة ببيان سوء مآلهم فقال : (ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا ، واتخذوا آياتى ورسلى هزوا) .

فاسم الإشارة (ذلك) مشار به إلى عقابهم السابق المتمثل فى حبوط أعمالهم واحتقار شأنهم . وهو خبر لمبتدأ محذوف . أى : أمرهم وشأنهم ذلك الذى بيناه سابقا .

وقوله : (جزاؤهم جهنم) جملة مفسرة لاسم الإشارة لا محل لها من الإعراب أو هو جملة مستقلة برأسها مكونة من مبتدأ وخبر .

وقوله . (بما كفروا واتخذوا آياتى ورسلى هزوا) بيان للأسباب التى جعلتهم وقودا لجهنم .

أى : أن مصيرهم إلى جهنم بسبب كفرهم بكل ما يجب الإيمان به ، وبسبب اتخاذهم آيات الله الدالة على وحدانيته ، وبسبب اتخاذهم رسله الذين أرسلهم لهدايتهم ، محل استهزاء وسخرية .

فهم لم يكتفوا بالكفر بل أضافوا إلى ذلك السخرية بآيات الله - تعالى - والاستهزاء بالرسل الكرام - عليهما الصلاة والسلام - .

ثم أتبع - سبحانه - هذا الوعيد الشديد للكافرين ، بالوعد الحسن للمؤمنين فقال - تعالى - :

« إِنَّ الذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كانَتْ لَهُم جنَّاتُ الفِرْدَوْسِ نُزُلاً (١٠٧) خالدينَ فيها لا يَبْغُونَ عَنها حِوَلاً (١٠٨) » .

وجنات الفردوس : هى أفضل الجنات وأعلاها . ولفظ الفردوس : لفظ عربى ويجمع على فراديس ، ومنه قولهم صدر مفردس ، أى : واسع .

قال الآلوسى ما ملخصه : عن مجاهد أن الفردوس هو البستان بالرومية ، وعن عكرمة أن الفردوس هو الجنة بالحبشية . .

ونص الفراء على أن هذا اللفظ عربى ومعناه البستان الذى فيه كرم . . .
وقال المبرد : هى - أى كلمة الفردوس - فيما سمعت من العرب : الشجر الملتف والأغلب عليه العنب .

وأخرج الشيخان عن أبى هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : إذا سألتم الله - تعالى - فاسألوه الفردوس ، فإنه وسط الجنة وأعلى الجنة ، وفوقه عرش الرحمن . ومنه تفجر أنهار الجنة ...)[1] .

(١) تفسير الآلوسى ج ١٦ ص ٥٠

والمعنى : إن الذين آمنوا بالله - تعالى - وبكل مايجب الإيمان به، وعملوا الأعمال الصالحات بإخلاص وإتباع لما جاء به الصادق المصدوق - صلى الله عليه وسلم - «كانت لهم عند الله - تعالى - جنات الفردوس» التي هي أفضل الجنات وأرفعها درجة «نزلا» أي : هدية تقدم لهم منه يوم القيامة، ومكانا ينزلون به تكريما وتشريفا لهم.

«خالدين فيها» خلودا أبديا، حالة كونهم «لا يبغون عنها حولا» أي : لا يطلبون تحولا أو إنتقالا منها إلى مكان آخر، لكونها أطيب المنازل وأعلاها.

وفى قوله - تعالى - : «لا يبغون عنها حولا» لفتة دقيقة عميقة للإجابة على مايعترى النفس البشرية من حب للانتقال والتحول من مكان إلى مكان، ومن حال إلى حال ...

فكأنه - سبحانه - يقول : إن ماحصلت عليه النفوس فى الدنيا من حب للتحول والتنقل ...

قد زال وانتهى بحلولها فى الآخرة فى الجنة، فالنفس الإنسانية عندما تستقر فى الجنة - ولاسيما جنة الفردوس - لاتريد تحولا أو إنتقالا عنها، لأنها المكان الذى لا تشتاق النفوس إلى سواه، لأنها تجد فيه ماتشتهيه وماتبتغيه نسأل الله - تعالى - أن يرزقنا جميعا جنات الفردوس.

وكما افتتح - سبحانه - السورة الكريمة بالثناء على ذاته، ختمها - أيضا - بالثناء والحمد، فقد أثبت - عز وجل - أن علمه شامل لكل شيء، وأن قدرته نافذة على كل شيء، وأنه - تعالى - هو المستحق للعبادة والطاعة، فقال :

«قُلْ لو كانَ البحرُ مِدَاداً لِكَلِماتِ رَبِّى لنَفِدَ البحرُ قبلَ أن تنفَدَ كلماتُ رَبِّى، ولو جِئْنَا بِمثلِه مدداً (١٠٩) قُلْ إنَّما أنَا بَشَرٌ مِثلُكم

يوحَى إلىَّ أنَّمَا إلهُكُم إلَهٌ واحدٌ ، فَمَنْ كانَ يرجُو لقاءَ ربِّه فليَعْمَلْ عملاً صالحاً ولا يُشْرِكْ بعبادةِ ربِّه أحداً (١١) » .

والمراد بالبحر : جنسه ، والمداد فى الأصل : اسم لكل مايمد به الشىء . واختص فى العرف لما تمد به الدواة من الحبر .

والمراد بكلمات ربى : علمه وحكمته وكلماته التى يصرف بها هذا الكون .

وقوله : (لنفد البحر) : أى لفنى وفرغ وانتهى . يقال : نفد الشىء ينفد نفاداً ، إذا فنى وذهب ، ومنه قولهم : أنفد فلان الشىء واستنفده ؛ أى : أفناه .

والمعنى : قل - أيها الرسول الكريم - للناس : لو كان ماء البحر مداداً للأقلام التى تكتب بها كلمات ربى ومعلوماته وأحكامه .. لنفد ماء البحر ولم يبق منه شىء - مع كثرته وغزارته - قبل أن تنفد كلمات ربى ، وذلك لأن ماء البحر ينقص وينتهى . أما كلمات الله - تعالى - فلا تنقص ولا تنتهى .

وقوله - سبحانه - : (ولو جئنا بمثله مدداً) زيادة فى المبالغة وفى التأكيد لما قبله من شمول علم الله - تعالى - لكل شىء ، وعدم تناهيه .

أى : وبعد نفاد ماء البحر السابق ، لو جئنا بماء بحر آخر مثله فى السعة والغزارة ، وكتبنا به كلمات الله - تعالى - لنفد - أيضاً - ماء البحر الثانى دون أن تنفد كلمات ربى .

فالآية الكريمة تصور شمول علم الله - تعالى - لكل شىء ، وعدم تناهى كلماته ، تصويراً بديعاً ، يقرب إلى العقل البشرى بصورة محسوسة كمال علم الله - تعالى - وعدم تناهيه ...

قال الآلوسى : وقوله : (ولو جئنا بمثله مدداً) : هذا كلام من جهته - تعالى شأنه - غير داخل فى الكلام الملقن ، جىء به لتحقيق مضمونه ، وتصديق مدلوله على أتم وجه . والواو لعطف الجملة على نظيرتها المستأنفة المقابلة لها المحذوفة لدلالة ما ذكر عليها دلالة واضحة :

أي : لنفد البحر قبل أن تنفد كلماته - تعالى - لو لم نجيء بمثله مدداً ، ولو جئنا بمثله مدداً - لنفد أيضاً -[1] .

وقال بعض العلماء : وهذا من باب تقريب المعنى إلى الأذهان ، لأن هذه الأشياء مخلوقة ، وجميع المخلوقات منقضية منتهية ، وأما كلام الله - تعالى - فهو من جملة صفاته ، وصفاته غير مخلوقة ولا لها حد ولا منتهى ، فأى سعة وعظمة تصورتها القلوب ، فالله - تعالى - فوق ذلك ، وهكذا سائر صفات الله - سبحانه - كعلمه وحكمته وقدرته ورحمته[2] .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : (ولو أن ما فى البحر من شجرة أقلام ، والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ، ما نفدت كلمات الله ، إن الله عزيز حكيم)[3] ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بأمر آخر منه - تعالى - لنبيه - صلى الله عليه وسلم - فقال: (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد).

أى : قل - أيها الرسول الكريم - للناس ، مبيناً لهم حقيقة أمرك ، بعد أن بينت لهم عدم تناهى كلمات ربك .

قل لهم : إنما أنا بشر مثلكم ، أوجدنى الله - تعالى - بقدرته من أب وأم كما أوجدكم . وينتهى نسبي ونسبكم إلى آدم الذى خلقه الله - تعالى - من تراب .

ولكن الله - عز وجل - اختصنى بوحيه وبرسالته - وهو أعلم حيث يجعل رسالته - وأمرنى أن أبلغكم أن إلهكم وخالقكم ورازقكم ومميتكم ، هو إله واحد لا شريك له لا فى ذاته ، ولا فى أسمائه ، ولا فى صفاته .

فعليكم أن تخلصوا له العبادة والطاعة ، وأن تستجيبوا لما آمركم به ، ولما أنهاكم عنه . فإنى مبلغ عنه ما كلفنى به .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٦ ص ٥٢

(٢) تفسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان . جـ ٥ ص ٥٤٣ للشيخ عبد الرحمن ابن ناصر السعدى طبعة مؤسسة مكة للطباعة والإعلام

(٣) سورة لقمان الآية ٢٧

فالآية الكريمة وإن كانت تثبت للرسول - صلى الله عليه وسلم - صفة البشرية وتنفي عنه أن يكون ملكا أو غير بشر . إلا أنها تثبت له - أيضا - أن الله - تعالى - قد فضله على غيره من البشر بالوحي إليه ، وبتكليفه بتبليغ ما أمره الله - تعالى - بتبليغه للعالمين . كما قال - سبحانه - (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) وكما قال - عز وجل - : (قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ، ولا أقول لكم إني ملك ، إن أتبع إلا ما يوحى إلي ..)[1].

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بتلك الجملة الجامعة لكل خير فقال : «فمن كان يرجو لقاء ربه ، فليعمل عملا صالحا ، ولا يشرك بعبادة ربه أحدا » .

أي : قل - أيها الرسول الكريم - للناس : إنما أنا واحد مثلكم في البشرية إلا أن الله - تعالى - قد خصني واصطفاني عليكم برسالته ووحيه ، وأمرني أن أبلغكم أن إلهكم إله واحد . فمن كان منكم يرجو لقاء الله - تعالى - ويأمل في ثوابه ، ورؤية وجهه الكريم ، والظفر بجنته ورضاه ، فليعمل عملا صالحا ، بأن يكون هذا العمل خالصاً لوجه الله - تعالى - ومطابقاً لما جئت به من عنده - عز وجل - ولا يشرك بعبادة ربه أحدا من خلقه ، سواء أكان هذا المخلوق نبياً أم ملكا أم غير ذلك من خلقه - تعالى - .

وقد حمل بعض العلماء الشرك هنا على الرياء في العمل ، فيكون المعنى : «فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ، ولا يرائي الناس في عمله ، لأن العمل الذي يصاحبه الرياء هو نوع من أنواع الشرك بالله تعالى » .

والذي يبدو لنا أن حمل الشرك هنا على ظاهره أولى ، بحيث يشمل الإشراك الجلي كعبادة غير الله - تعالى - والإشراك الخفي كالرياء وما يشبهه .

أي : ولا يعبد ربه رياء وسمعة ، ولا يصرف شيئا من حقوق خالقه لأحد من خلقه ، لأنه - سبحانه - يقول : (إن الله لا يغفر أن يشرك

(١) سورة الأنعام الآية ٥٠ .

ويغفر مادون ذلك لمن يشاء، ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما »[١] .

وقد ساق الإمام ابن كثير جملة من الأحاديث عند تفسيره لقوله ـ تعالى ـ « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ».

ومن هذه الأحاديث مارواه ابن أبي حاتم ، من حديث معمر ، عن عبد الكريم الجزرى ، عن طاووس قال : قال رجل يارسول الله ، إنى أقف المواقف أريد وجه الله ، وأحب أن يرى موطنى ، فلم يرد عليه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ شيئا حتى نزلت هذه الآية : « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا »[٢] .

أما بعد : فهذه سورة الكهف، وهذا تفسير محرر لها ، نسأل الله ـ تعالى ـ أن ينفعنا بالقرآن الكريم، وأن يجعله ربيع قلوبنا، وأنس نفوسنا، وشفيعنا يوم نلقاه « يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله » .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

المدينة المنورة : مساء الخميس ١٨ من رجب سنة ١٤٠٤ هـ

١٩ من إبريل سنة ١٩٨٤ م

د / محمد سيد طنطاوى

مفتى جمهورية مصر العربية

---

(١) سورة النساء الآية ٤٨ .

(٢) راجع تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٢٠٠ ، طبعة دار الشعب .

فهرس إجمالى لتفسير « سورة الكهف »